روايات عالمية

أرنست همنغواي

الشيخ والبحر



ترجمة : سمير عزت نصار

روايات عالمية

أرنست همنغواي

الشيخ والبحر

ترجمة: سمير عزت نصار

الأهلية للنشر والتوزيع

المملكة الأردنية الهاشمية، عمان
وسط البلد، خلف مطعم القدس
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨، فاكس ٤٦٥٧٤٤٥
ص. ب: ٧٧٧٦ عمان / الأردن
e-mail: alahlia@nets.jo

الشيخ والبحر
أرنست همنغواي / أمريكا
ترجمة: سمير عزت نصار / الأردن

الطبعة العربية الأولى: ٢٠٠٦
حقوق الطبع محفوظة

تصميم الغلاف: زهير أبو شايب / الأردن

الصف الضوئي: بالوت، عمان، هاتف ٤٦٤١١٨٣

* اسم المؤلف: إيرنست همنجواي
* اسم المترجم: سمير عزت محمد نصار
* اسم المراجع: د. سميح ذيب عقاب إيطح
* اسم الرواية: الرجل العجوز والبحر/ الشيخ والبحر
* الطبعة العربية الأولى: ٢٠٠٢
* الناشر:
* التوزيع:
* التنضيد والإخراج: دار النسر للنشر والتوزيع

مقدمة

حياة إيرنست همنجواي

وُلد إيرنست همنجواي، وهو الابن الثاني من ستة أطفال لطبيب ومدرسة موسيقى (مغنية محترفة حتى وقت زواجها) في أوك بارك، إلينوي، قرب تشيكاغو، في ٢١/يوليو/١٨٩٩. نشأ في بيئة طبقة متوسطة في أوك بارك، حيث عمل جده في العقار هناك، كما لعبت أمه دوراً قوياً في أنشطة الكنيسة المحلية. كان أبوه أقل اندماجاً في المجتمع: وهو رجل خجول حساس، ففضّل أن يقضي حياةً خارج البيت حين يكون هذا ممكناً إلا أنه كان طبيعياً ورياضياً نشيطاً. وقد علّم ابنيه الاثنين (كان إيرنست أكبرهما) صيد السمك والرماية. ولمعاناته من مرض القلب والسكري، أقدم على الانتحار بإطلاقه النار على نفسه من مسدس استعمله أبوه في الحرب الأهلية.

كانت حياة همنجواي المدرسية متزنة؛ فقد كان مهتماً بالموسيقى والدراما؛ وشارك في مجادلات المدرسة وكتب في مجلتها؛ وكان ماهراً في الألعاب. واستمتع بالتخييم وتعلّم أن يصبح رامياً بارعاً. في ١٩١٧، تطوّع للانضمام في جيش الولايات المتحدة لكنه رفض لأنه مصاب بعيب طفيف في إحدى عينيه. ثم، وبعد فترة قصيرة، لكنها إشكالية، من شغله عمل مراسل صحفي، انضم إلى الصليب الأحمر الأمريكي وسافر إلى إيطاليا في مايو ١٩١٨.

كانت أول تجربة همنجواي في الحرب في إيطاليا مزعجة. فقد حدث انفجار في مصنع ذخيرة في طرف ميلانو وانضم همنجواي إلى عمليات الإنقاذ ورفع الأنقاض. تبع هذا بعد بضعة أسابيع

تجربة معظمة حين كان في خط الجبهة، مقدماً الإمدادات من الصليب الأحمر إلى الجنود الإيطاليين. وقد جرحته قذيفة جرحاً خطيراً. كما طرحته قوة الانفجار وظن أنه مات. حين استعاد وعيه، تمكن، رغم الإصابات الحادة في رجليه، أن يحمل جندياً جريحاً إلى أول مركز إسعاف، مع أنه أصيب أيضاً بطلقات رشاشة. بعد تقديم عون طوارىء له وصل إلى المستشفى وبقي على قيد الحياة بعد إجراء اثنتي عشرة عملية أخرجت بها أكثر من مائتي قطعة معدن من رجليه وجسمه. وخلفته التجربة جريحاً نفسياً وجسدياً. كما انزعج حين كتبت إليه ممرضة أمريكية، وقع في غرامها في إيطاليا، أثناء وجوده في أرض الوطن يستعيد صحته هناك، تقول فيها إنها لم تعد تحبه ونقلت عواطفها إلى شخص إيطالي.

انتقل همنجواي إلى تورنتو في كندا في ١٩١٩، ليصبح مراسلاً صحفياً. ومن كندا عاد إلى أوروبا في ١٩٢١، في السنة التي تزوج فيها هادلي رتشاردسون. وقد استقر في باريس كمراسل صحفي أوروبي لدايلي ستار وستار ويكلي في تورنتو. ظل يكتب القصص القصيرة والشعر، وحينما حل في باريس بدأ في تركيز تقنيته الفنية. وقد أحب عمله كمراسل صحفي وعمل بجدية في هذا الميدان، متنقلاً إلى إيطاليا وألمانيا، وسويسرا واليونان، وإسبانيا وتركيا. وكتب تقارير عن مؤتمرات، وعن الحرب اليونانية التركية، وحرب الشوارع التي رافقت بداية تقدم الفاشية والشيوعية نحو السلطة السياسية.

وضع كتاباته الإبداعية التي كتبها في بتروفسكي وميشيغان وفي تورنتو، إضافة إلى القصص والقصائد التي كتبها في باريس، في حقيبة سرقت منه في قطار في ديسمبر ١٩٢٢، حين غادرت السيدة همنجواي مقصورتها لفترة قصيرة في محطة ليون في باريس. ولم يستعد أياً من هذه الأعمال. وكان بين الأعمال الأخيرة مخطوطة مكتملة جزئياً لما كانت ستكون أول رواية لهمنجواي. وقد ظل

يكتب مقالات خفيفة إضافة إلى تقارير عن الأحداث العامة، لكنه بدأ يفكر بأنه قد يفسد قدرته ككاتب أعمال إبداعية إذا استعمل تجاربه على نحو مباشر وعلى الفور تماماً. لذلك قرر أن يتوقف عن كونه صحفياً ويكتب القصة. فأصبح كاتباً متفرغاً في ١٩٢٧. وقد يكون تأثر بالصحبة التي استمر في مرافقتها في باريس حين وصل إلى هذا القرار. حيث عرف هناك الكثير من المغتربين، من بينهم جيمس جويس، جيرترود شتاين، إزرا باوند، سكوت ف. فيتزجرالد، جون دوس باسوس، مالكولم كاولي، وليم كارلوس وليمز، أرتشيبولد ماكليش وفورد مادوكس فورد.

أظهرت ثلاث قصص وعشر قصائد قدرته في أن يكتب على نحو جيد. ثم أتبع هذه المجموعة بمجموعة **في زماننا** (١٩٢٤)، وهي قطع تجريبية، أضاف إليها خمس عشرة قصة قصيرة لمجلد يحمل عنوان **في زماننا** نشر في نيويورك في ١٩٢٥. وقد فقد نيك آدمز، بطل سبع قصص من هذه القصص وهي شخصية همنجواي النمطية، البراءة وتعلم أن العالم ليس هو ما توقعنا أن يكون، لكنه مكان يفرض علينا احتمال المعاناة والمطالب الحياتية. وتلقي تجربة شر العالم بظلالها؛ فيطور بطل همنجواي، نتيجة للمعاناة والمعرفة، طريقة في معالجة المشاكل التي تدفعه التجربة إلى مواجهتها. فهو يجب أن يكون شجاعاً؛ يتجنب الرثاء للنفس ويكون ساخراً؛ كما يجب أن يكون شريفاً وعطوفاً. إن خشونة العقلية ضرورية لمواجهة الأزمات، والسلوك سلوكاً جيداً مع الكرامة والشرف.

نشرت لهمنجواي روايتان في ١٩٢٦. كانت **دفقات الربيع** سخرية من كتابات مؤلف أمريكي هو شيروود أندرسون الذي كان له تأثير على عمل همنجواي المبكر، وجيرترود شتاين، التي خصت همنجواي بنقد حساس لعمله المبكر في باريس. وكان هذا العمل ناجحاً في ذلك الوقت، فقد كان هجومه على مؤلفين راسخي القدم في التأليف هجوماً على أصعد مبالغ بها من كتابة معاصرة صبغت على شكل بارودي/نقيض. وقد قاد هذا همنجواي إلى

ناشر آخر، هو سكريبنر؛ وفي ١٩٢٦ نشرت هذه المؤسسة **الشمس تشرق أيضاً**، الرواية التي أضفت على اسمه شهرة واسعة.

وقد جعلت قدرة همنجواي على الكتابة عن أماكن إضافة إلى إلحاحه على ذكر الحقيقة الواقعية رواية **الشمس تشرق أيضاً** (وحملت عنوان **المهرجان** حين نشرت في إنجلترا في ١٩٢٧) تقرأ على نطاق واسع في جميع أنحاء العالم. فقد أراد أن يكتب عما رآه وعما أحس به "بأفضل وأبسط طريقه يمكنني ذكرها به" وأراد أن ينقل ما حدث ليري القارىء بالضبط "الطريقة التي هو عليها".

فالرواية تذكر قصة جايك بارنيس، وهو صحفي أمريكي، والليدي بريت آشلي، وهي امرأة انجليزية. وكان بارنيس قد فقد رجولته في الحرب؛ وهو يحب بريت المدمنة على المسكرات والشبقة، والتي فقدت خطيبها في الحرب وتنتظر الزواج من رجل إنجليزي بعد طلاقه. وتعرض الرواية فضائل همنجواي في طريقة مواجهة جايك وبريت لمواقف عديدة؛ فهما يحققان جمالاً معيناً.

بعدئذ وفي ١٩٢٩، ظهرت **وداعاً للسلاح**، القائمة على أساس تجارب همنجواي الحربية في إيطاليا. وتتضمن هذه الرواية البطل الأمريكي وقد جرح، ووقع في حب ممرضة (تصبح هذه العلاقة حباً حقيقياً متبادلاً)؛ ويتبع هذا هزيمة الجيش الألماني في كابوريتو؛ فيهرب البطل من الجيش، ثم يعيد ارتباطه بالممرضة، التي يهرب معها إلى سويسرا. وتنتهي الرواية بموتها أثناء ولادتها لطفل.

في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين، كتب همنجواي كثيراً من القصص القصيرة؛ وقد نشرت على شكل كتاب في **رجال بلا نساء** (١٩٢٧)، **ليريحكم الله يا سادة مرحين** (١٩٣٣)، **الفائز لا ينال شيئاً** (١٩٣٣)، **قصص همنجواي القصيرة** (١٩٣٨).

وكتب أيضاً **موت في فترة بعد الظهر** (١٩٣٢)، **تلال أفريقيا الخضراء** (١٩٣٥)، والكتاب الأول مقدمة جيدة لمصارعة الثيران في إسبانيا، والأخير وصف لرحلة صيد في كينيا. ويحتوي كلا الكتابين على وجهات نظر همنجواي النقدية الكثيرة في الأدب

والتقنيات الضرورية للكتابة الجيدة.

بعد طلاق في ١٩٢٧، تزوج ثانية، وقد دام زواجه من بولين بفايفر حتى ١٩٤٠، حين تزوج مارثا جيلهورن. وحدث طلاق آخر في ١٩٤٦ وتزوج ماري ولش. وقد أنجب ابناً من زواجه الأول، وابنين من زواجه الثاني.

وتبعت رواية **أن تملك وألا تملك** رواية **وداعاً للسلاح** في ١٩٣٧، وهي ليست رواية بارزة على نحو خاص، مع أنها تظهر تطورات في أسلوب همنجواي؛ وقد جمع الرواية من قصتين أضاف إليهما مادة أكثر، واستعمل تيار الوعي - أفكار تتدفق في عقول الشخصيات الرئيسية - لتقدم للقارىء فكرة أعمق عن الشخصية الرئيسية. وكانت **لمن يقرع الجرس** (١٩٤٠) رواية أكثر تعقيداً، تدور حول الحرب الأهلية الإسبانية، وتركز على عملية خلف الخطوط الفاشية التي تتضمن تدمير جسر. وهذا العمل التخريبي يقوم به روبرت جوردان، بروفسر جامعة أمريكي يحارب إلى جانب الحكومة الجمهورية.

ولعرض همنجواي لشخص مثقف كشخصية رئيسية، تمكن من الانتقال من تركيزه المبكر على الحركة، وعلى الوقائع، فروبرت جوردان شخصية فصيحة مما تسمح لهمنجواي أن يقدم أفكاراً في الرواية. وروبرت جوردان طبعاً بطل همنجوايّ نمطي في جرأته وصدقه وحنوه.

حين نشبت الحرب العالمية الثانية، كان همنجواي يقيم في كوبا. وقد قدم قاربه البخاري كمركب دورية مساعد، وتابع القيام بدوريات ضد الغواصات في بحر الكاريبي. ثم أصبح مراسلاً حربياً في لندن، وطار في مهمات مع القوات الجوية الملكية، وتابع غزو فرنسا والحملة في ألمانيا. وقد دارت رواية **الجزيرة والتيار (جزر في التيار- م)** التي نشرت بعد وفاته (١٩٧٠) حول الحرب لكن همنجواي لم يراجعها مراجعته العادية الدقيقة فلم تلاق نجاحاً تاماً، رغم أن بعضها مكتوب على نحو ممتاز.

أثرت الحرب على صحة همنجواي: فقد أصابه ارتجاج مخيّ مرتين وعانى من رؤية مزدوجة لبعض الوقت إضافة إلى صداعات مؤلمة: وقد أثرت عليه عدوى عين حادة في ١٩٤٨، وفي كينيا في يناير ١٩٥٤، السنة التي فاز فيها فيما بعد بجائزة نوبل في الأدب، وقع له حادثان في طائرة خفيفة خلال يومين. وقد أصابه هذان الحادثان بالارتجاج ثانية، بالرأس وبإصابات داخلية وبالعمود الفقري وبحروق خطيرة. فأصبح قلقاً جداً على صحته.

إن **عبر النهر وبين الأشجار** (١٩٥٠) رواية تحتوي على أوصاف رائعة، خصوصاً صيد البط في السبخات قرب فينيسيا/ مدينة البندقية. وتتحرك الرواية في اتجاه الرمزية، لكن ليس على نحو ناجح إجمالاً. والحوار زائد الحمولة، مع أن علاقة الحب بين عقيد مسن مهدد بنوبة قلبية وكونتيسة شابة فينيسية، يعيد ذكر موقف همنجواي من الشجاعة في وجه الكارثة.

أما آخر رواية نشرت في حياته، **الرجل العجوز والبحر** (١٩٥٢)، فهي إنجاز رائع منح من أجلها جائزة بولتزر. أصبحت صحة همنجواي أسوأ بعدئذ، وعانى من اكتئاب عصبيّ وضغط دم عالٍ. ولم يعد قادراً على الكتابة، فأطلق النار على نفسه من بندقية مزدوجة الماسورة في يوليو ١٩٦١ في موطنه في كيتش، أيداهو. وكستنياجو، صياد السمك البطل في **الرجل العجوز والبحر**، وبالكلمات التي استعملها همنجواي حول وضع الكتاب وألقيت حين تلقيه جائزة نوبل (وهي كلمة ألقاها عنه السفير الأمريكي في السويد واستلم الجائزة نيابة عنه وهو لا يزال يسترد صحته من تحطم الطائرة)، "دفع بعيداً متجاوزاً ما يمكنه الوصول إليه من مكان، بعيداً إلى حيث لا يمكن لأي إنسان أن يساعده".

الرجل العجوز والبحر

إن هذا السرد القصير بسيط؛ إنه يقص قصة صياد سمك يبدو صراعه وجرأته وتحمله تلخيصاً لحياة الإنسان. وقد يقرأ هذا السرد كقصة بسيطة، كحلقة من حلقات حياة صائد أسماك؛ كما يمكن أن يقرأ كرمز/ أليجوري يدور حول صراع الفنان مع مادته أو حتى كرمز لصلب المسيح. وتقع الرمزية تحت سيطرة همنجواي بالكامل؛ ونتيجة لذلك فهناك طبقات من المعنى تعطي القصة صفاتها العالمية. ويبني همنجواي حول بساطة هذه القصة ويعطيها دلالة تتجاوز صياد السمك وسمكة المارلين وسمك القرش. وكما قال، إنه حاول أن يقدم: "رجلاً عجوزاً حقيقياً، وولداً حقيقياً، وبحراً حقيقياً وسمكة حقيقية وسمك قرش حقيقيّ. لكنني جعلتها كلها جيدة وحقيقية تماماً حتى تعني أموراً كثيرة".

الحبكة

أصاب صائد السمك العجوز سنتياجو سوء الحظ لفترة طويلة في صيده للسمك، فهو لم يصطد أي سمكة منذ أربعة وثمانين يوماً. وقد ظل ولد يساعده لكن أبويه منعاه من أن يخرج مع الرجل العجوز، لذلك كان الرجل العجوز وحيداً حين خرج مبكراً ذات صباح في تيار الخليج الذي يتحرك فوق جزيرة كوبا. عند الظهر تقريباً، يصطاد سمكة مارلين ضخمة تسحب قاربه إلى الشمال والشرق لمدة يومين وليلتين. ويتعلق بالخيط الثقيل، مضاهياً قوته وتحمله بقوة وتحمل السمكة. وفي اليوم الثالث، يجذب سمكة المارلين نحو السطح ويقتلها بحربونه؛ ويربطها على طول قاربه، وينشر شراعه الصغير ويبدأ رحلة العودة الطويلة. تنقض أسماك القرش لتمزيق لحم السمكة ويحاول هو أن يقاتلها

ويبعدها، ضارباً بالمراوة وطاعناً إياها فيتهشم مجذافاه وسكان دفة القارب. وحين يعود ليرسو في المرفأ، لا يكون قد بقي شيء من السمكة سوى رأسها والهيكل العظمي والذيل. ثم يرسو بقاربه، مبقياً على هيكل السمكة مربوطاً به. يصل إلى كوخه، منهك القوى. يحضر الولد في الصباح، ورغم سوء حظ الرجل العجوز يكون متلهفاً للخروج معه للصيد ثانية. فهو سيجلب له الحظ كما أنه سيتعلّم منه الكثير.

الشخصيات

ـ الرجل العجوز:

يتمتع الرجل العجوز بإيمان بسيط؛ وهو مفعم بالأمل؛ وكريم النفس. مع أنه دمر بالمعركة مع السمكة إلاّ أنه ليس قانطاً. إنه يقول: "يمكن أن يدمر الإنسان، لكنه لا يهزم". إنه لم يهزم روحياً؛ لقد عرض جرأته وتصميمه للكارثة. لقد غدي برمز الصياد؛ فهو يعجب بسمكة المارلين ويحترمها وعليه أن يبرهن على أنه غريم جدير بها: "سأريها ما يمكن لإنسان أن يفعله وما يمكن أن يحتمله". يصيغ همنجواي الفكرة على هذا النحو: "إنه أبسط من أن يتعجب حين يبلغ التواضع. لكنه يعرف أنه بلغ هذا التواضع وهو يعرف أن أن هذا التواضع ليس مخزياً ولا يحمل أي خسارة في الكبرياء الحقيقية". كما أنه متناغم مع الطيور والسمك ويتكلم معها.

ـ الولد

أخبره والداه بأن الرجل العجوز غير محظوظ؛ ومع أنه عمل على قارب آخر حسب أوامرهما يظل يعين الرجل العجوز حين يعود بأربعة وثمانين يوماً أخرى دون أن يصيد أي سمكة. إنه يعجب بسنتياجو ويأسف من أجله، فيقدم طعاماً لحملة صيد

العجوز ثم، وبعد عودة سنتياجو، يحضُر قهوة وطعاماً ودهوناً لديّ الرجل العجوز. وحب مانولين لسنتياجو مؤثّر: وهو يتصرف كتلميذ، ويكاد يكون ابناً.

أسلوب همجواي

اللغة

يستعمل همنجواي اللغة ببساطة ظاهرة للعيان. إنها مباشرة وأحياناً متوترة وغير مترابطة. فهو يريد أن يري الناس كيف يتصرفون أثناء الفعل وكيف يتكلمون. في كتاب **موت في فترة بعد الظهر** كتب: إذا كان الناس الذين يدعهم كاتب من النوع الذي يتكلم عن المبدعين الأساتذة القدماء أو عن الموسيقى أو عن الرسم المعاصر أو عن الأدب الراقي أو العلوم فإن عليهم أن يتكلموا عن هذه المواضيع في الرواية. وناقش بأنهم إذا لم يكونوا من النوع الذي لا يتكلم عن هذه المواضيع، ويجعلهم الكاتب يتكلمون عنها، "فهو زائف، وإذا تكلم هو نفسه ليري مقدار ما يعرفه هو نفسه من معلومات فهو يستعرض". هذا الإلحاح على الكلام والتعبير الطبيعيين يعود إلى زمن بعيد. ففي إنجلترا في القرن السابع عشر، مثلاً، حاولت الجمعية الملكية أن تحمل أعضاءها على التعبير عن أنفسهم بوضوح في "حديث لصيق بالواقع عار".

إن هذا ردة فعل على لغة أدبية معقدة مزينة مزهرة إلى حد ما ظلّت شائعة الطراز حينذاك، لم تناسب النثر الذي تحتاج إليه لوصف وقائع تجربة علمية وبحوث تابعها (ولا يزال يتابعها) أعضاء الجمعية الملكية. في أمريكا، جادل بعض النقاد بأن مارك تواين أمسك بزمام اللغة التي استعملها الولد الأمريكي في روايته: **مغامرات هكلبري فن** (١٨٨٤)؛ هذه هي الطريقة التي يتكلم بها

الأمريكيون على نحو طبيعي في زمن تواين، وقد آمن همنجواي نفسه بأن كل الأدب الأمريكي المعاصر انحدر من ذلك الكتاب على نحو خاص. وكتب هو نفسه مستعملاً العامية، فأصبحت البساطة علامة أسلوبه وبناء جمله.

واجهت همنجواي مشكلة نقل حقيقة أن شخصياته لا تنبع من عالم يتكلم الإنجليزية. إنه يدور حول هذا بجعلهم يبدأون جملهم بتعابير إسبانية، يقول سنتياجو لسمكة هلامية: أجوا مالا، أنتِ يا عاهرة".

ومرة أخرى، وبعد أن دعى مانولين الرجل العجوز سنتياجو بأفضل صياد، مرددا صدى تعبير غالباً ما استعمل لوصف المسيح، أجابه العجوز ببساطة: "لا. إنني أعرف آخرين أفضل مني"، فيقول مانولين: "Que va/هراء. يوجد كثير من الصيادين الجيدين وبعضهم صيادون عظماء. لكن، توجد أنتَ فقط". إن هذه التقنية في استعمال التعبير الإسباني بهذه الطريقة يقدّم للقارىء إحساساً كافياً بأن الشخصية تتكلم أو تفكر بالإسبانية.

إن الكلمات التي يستعملها همنجواي في الحوار والوصف تكون عادة قصيرة وشائعة الاستعمال. وحين يربط جملاً يستعمل عادة حروف عطف بسيطة - "و" أو "لكن". وهو يميل إلى وصف الأحداث في تتابع بسيط، في تسلسل زمني. كما لا يوجد تعليق من المؤلف؛ أي أن لا شيء يقف بين القارىء والشخصية أو المشهد. إن الحوار ينزلق هابطاً نحو الأساسيات، إلى نموذج هو نمط الشخصية التي تتكلم. ويتطلب هذا الكثير من المراجعة؛ فمثلاً، قال همنجواي إنه قرأ **الرجل العجوز والبحر** بالكامل مائتي مرة في أثناء مراجعة الكتاب للنشر.

الرمزية

في القصة، رغم سردها ظاهر البساطة، ما يزيد على معناها

السطحي. إنها رمز/ أليجوري، فقد تفسر الأفعال على نحو رمزي/ أليجوري، وهو رمز ناجح لأن المعاني السطحية والمعاني تحت السطح الذكية تتطابقان وتعملان معاً. إن القصة تدين حقاً بكثير من قوتها للرمزية التي يستعملها همنجواي.

الرمزية هنا مسيحية. فـ سنتياجو - وهو حرفياً القديس جيمس - شبيه بالاسم الإنجيلي جيمس ابن زبيدي، صياد سمك. إنه رجل عجوز تقيّ يلتجىء إلى الله، إلى المسيح والعذراء مريم. وهو يصلي رسمياً أيضاً - "سأتلو عشر مرات أبانا والسلام عليكِ يا مريم حتى أصيد هذه السمكة" - ومرة أخرى، قرب ذروة صراعه مع السمكة، يزيد عدد الصلوات: "الآن، وبعد أن جعلتها تتقدم على نحو جميل، ساعدني يا إلهي لأحتمل. سأتلو أبانا مائة مرة ومائة مرة السلام عليكِ يا مريم".

إن صورة الصلب ظاهرة في الإشارة إلى يديّ سنتياجو الجريحتين - التمييز بين اليد اليمنى واليد اليسرى يماثل، كما أشار كارلوس بايكر، الفرق بين الرجال الذين صلبوا إلى يمين وإلى يسار المسيح. يعاني سنتياجو، بطريقة ما، من الشهادة. إنه يزن الأسباب لأفعاله: فهو يقوم فقط بواجبات صياد سمك، أو هل هو يتعارك مع السمكة بدافع من كبريائه؟ وأخيراً يقرر أنه خرج إلى "أبعد من اللازم"؛ ولم يبق في أمان قرب الشاطىء لكنه تحدى المخاطر، السمكة الضخمة من المياه العميقة. حين يرى سمكة القرش الأولى تصل لتمزق لحم المارلين يصيح: "آي"، وتوصف هذه الصرخة، "كمجرد ضجة قد يطلقها الإنسان لاإرادياً وهو يحس بالمسمار يتخلل يديه ثم يدخل في الخشب". وقد جادل كارلوس بايكر أيضاً بأن الرمزية تنطلق إلى نحو أبعد:

> بينما يقف سنتياجو وحيداً على الشاطىء الصخري في الظلام أمام فجر اليوم الرابع، يظهر اليدين الجريحتين؛ والدم الجاف على وجهه كأنه ناتج عن تاج أشواك. لقد عرف المذاق النحاسي

القبيح في فمه كأنه ناتج عن اسفنجة مليئة بالخل. (كارلوس بايكر: همنجواي: الكاتب كفنان، (١٩٥٦)، ص ٣١٣).

وبتسلق سنتياجو التل (وهذا موازٍ لـ كالفاري) وحين يصل إلى الكوخ ينهار على الفراش وذراعاه ممدودتان على استقامتهما وراحتا يديه إلى الأعلى. إنه، وعلى نحو ذي دلالة، في وضع صلب. يتحلى سنتياجو بفضيلة المسيحية المتمثلة بالتواضع: 'عرف أنه بلغها وعرف أن التواضع ليس مخزياً ولا يحمل أي خسارة في الكبرياء الحقيقية". إنه "مدمر لكنه ليس مهزوماً'.

الإنجاز

يعد همنجواي كاتباً رئيسياً لهذا القرن. وقد لفت رئيس الأكاديمية السويدية الانتباه إلى ثيمات/موضوعات عمله حين منح جائزة نوبل في ١٩٥٤، مادحاً إياه لتصويره الشجاعة والحنان في عالم مليء بالموت والعنف، ولإنتاجه، "بصدق وجرأة" ملامح "سحنة العصر القاسية". وقد مال إلى العودة إلى نفس النوع من المادة في قصته، مؤكداً كيف أن البطل يجد الحياة أقل اكتمالاً مما أمل أو توقع أن تكون عليه، مصوراً كيف أن البطل يجب أن يطيع مدونة رمزية تتحكم بالتشاؤم وتستدعي الأمانة والشجاعة والجود. وتركز رواية **الرجل العجوز والبحر** على قدرة لقبول المعاناة، فمانولين يسأل: 'كم عانيت"، فيتلقى الجواب: "كثيراً'. مع هذا، لا يصور همنجواي معاناة سلبية بل قدرة على التعرف على طبيعة التجربة البشرية والتعامل معها بشرف قدر الإمكان.

مع هذا، ليس الإنجاز فقط إنجازاً يصور خلال الفعل اقتراباً أخلاقياً نحو التجارب التي يفرضها الوجود البشري؛ إنه أيضاً إنجاز تعبير. وهذا ما جعل همنجواي مؤثراً إلى هذا الحد. فقد أثر أسلوبه على كتاب كثيرين آخرين خلال الكفاءة الملزمة لاقتصاده،

والتركيز السينمائي على التفاصيل والطريقة المقنعة التي تشعر بها وتتكلم حسبها شخصياته، والتي تسلكها وتعكسها. لقد بنى جواً؛ لقد صور فعلاً؛ وقد قام بهذا كله بغنية رائعة تصدر عن مهنية مدققة تماماً.

كـان رجـلاً عـجـوزاً يصطاد السمك وحيداً في زورق صغير في تيار الخليج وقـد أمـضى أربعـة وثمانين يومـاً حـتى الآن دون أن ينـال سـمـكـة. في الأربـعين يومـاً الأولى وهو بلا سمك، أخبره والدا الولد بأن الرجل العـجـوز أصبح الآن سالاو salao بـالتمام والكمال، وهي أسوأ صـبـغـة لـسـيء الحظ، فـذهـب الـولـد بناءً على أوامـرهما إلى زورق آخـر اصطاد ثلاث سـمكات جيدات في الأسبوع الأول. أحزنَ الولد أن يرى الرجلَ العـجـوز يرجع كل يوم وزورقـه خـاوٍ وذهب إليه دائماً ليعاونه في حمل حباله المجدولة أو المحجنَ والحربونِ والشراع المطوي حول الصاري. كـان الشراع مـرقـعـاً بأكـيـاس دقيق، وقد بدا، وهو ملفوف، مثل علَم الهزيمة الدائمة.

كـان الرجل العجوز نحيلاً وهزيلاً بغضون عميقة في قفا رقـبته. انتشرت على خديه البقع البنية لسرطان الجلد الحميد الذي تـسـبـبـه الشـمـس من انعكاسـهـا على البحر المداري. جرت البقع إلى أسفل جانبيْ وجهه تماماً وانحفرتْ في يديه

النَّدوبُ عميقة الغور من مناولته الأسماك الثقيلة المعلّقة بالحبال. لكن أياً من هذه الندوب لم تكن جديدة. كانت قديمة قدم تعريات في صحراء بلا سمك.

كان كل شيء فيه عجوزاً ما عدا عينيه فقد كانتا بنفس لون البحر ومرحتين وغير مهزومتين.

قال الولد له وهما يصعدان إلى الضفة التي سُحب منها الزورق: "سنتياجو. يمكنني الذهاب معك من جديد. لقد كسبنا بعض المال".

كان الرجل العجوز قد علّم الولد أن يصطاد فأحبه الولد.

قال الرجل العجوز: "لا. أنتَ مع زورق محظوظ. إبقَ معهم".

- "لكن تذكّر كيف خرجتَ لسبعة وثمانين يوماً بلا سمك ثم اصطدنا سمكاً كبيراً كل يوم لثلاثة أسابيع".

قال الرجل العجوز: "أتذكر. أعرف أنك لم تتركني لأنك شككتَ".

- "كان بابا هو الذي حملني على أن أترك. أنا ولد ويجب أن أطيعه".

قال الرجل العجوز: "أعرف، هذا طبيعي تماماً".

- "ليس لديه إيمان عميق".

قال الرجل العجوز: "لا. لكن، نحن لدينا. أليس كذلك؟"

قال الولد: "نعم. هل أقدّم إليك كأس بيرة في Terrace/ الشرفة ثم نأخذ العدة إلى البيت".

قال الرجل العجوز: "لِمَ لا؟ بين الصيادين".

جلسا على الشرفة وسخر كثير من الصيادين من الرجل العجوز ولم يغضب. أما الآخرون من الصيادين العجائز فنظروا إليه وكانوا حزينين. لكنهم لم يظهروا هذا الحزن وتحدثوا بأدب عن التيار والأعماق التي دفعوا بحبالهم فيها والجو الجميل المستقر وما قد رأوه. كان صيادو ذلك اليوم الناجحون قد سبق ووصلوا إلى الشاطيء وذبحوا أسماكهم إلى مارلين وشقوا بطونها ونظفوها وقطعوها وحملوها وقد مددت بكامل طولها على لوحيّ خشب، ورجلان يترنحان عند طرف كل لوح، إلى المسمكة حيث انتظروا شاحنة الثلج لنقلها إلى السوق في هافانا. أخذ أولئك الذين اصطادوا سمك قرش إلى معمل القرش على الجانب الآخر من الخليج حيث رفعته مجموعة روافع، وأزيلت أكبادها وفصلت زعانفها وسُلخت جلودها وقطع لحمها إلى قطع للتمليح.

حين هبّت الريح في الشرق، وصلت رائحة عبر المرفأ من معمل القرش؛ أما اليوم فانتشر فقط أثر ضئيل من الرائحة الكريهة لأن الريح غيرت اتجاهها إلى الشمال ثم ضعفت وكان الجو مبهجاً ومشمساً في الشرفة.

قال الولد: "سنتياجو".

قال الرجل العجوز: "نعم". كان يحمل كأسه ويفكر في سنين كثيرة خلت.

- "هل أخرج وأحضر لك سرديناً للغد؟"

- "لا. إذهب والعب بيسبول. لا زلتُ أستطيع التجذيف وسيلقي روجيليو بالشبكة".

-"أحب أن أذهب. إذا لم يكن باستطاعتي أن أصطاد معك، فإنني أود أن أخدمك بطريقة من الطرق".

قال الرجل العجوز: "اشتريت لي بيرة. لقد أصبحت رجلاً".

-"كم كان عمري حين أخذتني أول مرة في قاربك؟"

-"خمس سنوات وكدت أن تقتل حين جررت السمكة إلى القارب وهي لا تزال قوية وعنيفة وكادت أن تمزق القارب إلى قطع. هل تتذكر؟"

-"أتذكر ذيلها يضرب ويخبط ومقعد المجذاف ينكسر وضجة ضربها بالهراوة. أتذكرك وأنت تقذف بي إلى مقدمة القارب حيث تستقر الحبال الملفوفة المبللة وأنا أحس بالقارب كله يرتعش وضجة ضربك للسمكة كما لو كنت تحطب شجرة لتسقطها وقد غمرتني رائحة الدم الحلو".

-"هل تتذكر كل هذا حقاً أو أنني فقط حدثتك أنا عنه؟"

-"أتذكر كل شيء منذ أن ذهبنا معاً أول مرة".

نظر إليه الرجل العجوز بعينيه حائلتي اللون من الشمس، الواثقتين، المحبتين.

قال: "لو كنت ولدي لخرجت بك وخاطرت. لكنك ابن أبيك وابن أمك وأنت في قارب محظوظ".

-"هل أحضر السردين؟ أعرف أين يمكنني أن أحصل على أربع أطعام أيضاً".

-"لدي أطعامي التي بقيت من اليوم. وضعتها في الملح في الصندوق".

-"لأحضر أربعة طازجة".

قال الرجل العجوز: "واحد". لم يتركه أمله ولا ثقته بنفسه أبداً. لكنهما الآن يتنعشان كما ينتعشان حين يعلو النسيم.

قال الولد: "طعمان".

وافق الرجل العجوز: "طعمان. لم تسرقهما؟"

قال الولد: "سأسرقهما. لكنني اشتريت هذين الطعمين".

قال الرجل العجوز: "شكراً لك". كان أبسط من أن يستغرب متى يبلغ التواضع. لكنه عرف أنه بلغ هذا التواضع وعرف أن هذا ليس مخزياً ولا يحمل أي خسارة في كبريائه الحقيقي.

قال: "سيكون الغد يوماً جيداً مع هذا التيار".

سأل الولد: "إلى أين ستذهب؟"

-"بعيداً حتى أعود إلى البر حين يتغير اتجاه الريح. أريد أن أبحر قبل أن يحل النور".

قال الولد: "سأحاول أن أحمله على العمل بعيداً. حينئذ، إذا اصطدت شيئاً كبيراً حقاً يمكننا أن نهب لمساعدتك".

-"إنه لا يحب العمل بعيداً جداً".

قال الولد: "لا. لكنني سأرى شيئاً لا يستطيع رؤيته مثل طائر يصطاد من سرب سمك على السطح وأحمله على أن يخرج وراء دلفين".

-"هل عيناه بذلك السوء؟"

-"إنه أعمى تقريباً".

قال الرجل العجوز: "هذا غريب. لم يمض إلى صيد

السلاحف أبداً. ذلك ما يقتل العينين".

- "لكنك خرجتَ لصيد السلاحف لسنواتٍ بعيداً عن ساحل موسكيتو وعيناك جيدتان".

- "أنا رجل عجوزٌ غريب".

- "لكن، هل أنت قوي تماماً الآن لتصطاد سمكة كبيرة حقاً؟"

- "أظن هذا. وتوجد حيل كثيرة".

قال الولد: "لنأخذ العدّة إلى البيت. هكذا يمكنني أخذ شبكة الصيد الصغيرة وأجري وراء السردين".

أخرجا العدة من القارب. حمل الرجل الصاري على كتفه وحمل الولد الصندوق الخشبي مع الحبال الملفوفة المجدولة بقوة وبنية اللون والمحجن والحربون مع عموده. كان الصندوق مع الأطعام تحت مؤخرة الزورق مع الهراوة التي تستعمل في إخضاع السمك الضخم حين يرفع ويوضع إلى جانب القارب. لا يوجد أحد سيسرق من الرجل العجوز، لكن من المستحسن أخذ الشراع والحبال الثقيلة إلى البيت لأن الندى مضر بها، مع أنه كان متأكداً تماماً من أن أحداً من الناس المحليين لن يسرق منه، وفكّر الرجل العجوز بأن المحجن والحربون لا يغريان على السرقة حين يتركهما في قارب.

مشيا صاعدين الطريق معاً إلى كوخ الرجل العجوز ودخلاه من بابه المفتوح. أسند الرجل العجوز الصاري بشراعه المطوي على الحائط ووضع الصندوق والعدة الأخرى إلى جانبه. كان الصاري بطول غرفة الكوخ الوحيدة تقريباً. كان الكوخ مصنوعاً من سعف نخل

ملكي خشن يدعى جوانو/guano فيه سرير وطاولة وكرسي واحد ومكان على الأرضية القذرة للطبخ بالفحم النباتي. على الحيطان البنية المصنوعة من الأوراق المنبسطة المتراكبة لـ جوانو متينة الألياف علّقت صورة بالألوان للقلب المقدس ليسوع وصورة أخرى لعذراء بلدة كوبر. كانت هاتان الصورتان من آثار زوجته. في يوم من الأيام، علّقت صورة ملونة لزوجته على الحائط لكن كان عليه أن ينزلها لأنها كانت تشعره بالوحدة الشديدة حين يراها وهي الآن على الرف في الركن تحت قميصه النظيف.

سأل الولد: "ماذا لديك لتأكله؟"

- "قدر من رز أصفر مع سمك. هل تريد شيئاً منه؟"

- "لا. سآكل في البيت. هل تريد مني أن أشعل النار؟"

- "لا. سأشعلها فيما بعد. أو قد آكل الرز بارداً".

- "هل آخذ شبكة الصيد الصغيرة؟"

- "طبعاً".

لم تكن هناك شبكة صيد صغيرة ويذكر الولد الوقت الذي باعاها فيه. لكنهما واصلا نسج هذا الخيال كل يوم. لم يكن هناك قدر من رز أصفر وسمك وكان الولد يعرف هذا أيضاً.

قال الرجل العجوز: "خمسة وثمانون رقم سعيد. كيف ستراني أحضر سمكة تزن صافية بعد التنظيف أكثر من ألف رطل؟"

- "سآخذ شبكة الصيد الصغيرة وأمضي لصيد السردين. هل ستجلس تحت الشمس في فتحة الباب؟"

-"نعم. عندي جريدة أمس وسأقرأ البيسبول".

لم يعرف الولد إن كانت جريدة أمس خيالاً أيضاً. لكن الرجل العجوز أخرجها من تحت السرير.

أوضح: "أعطاني إياها بيركو في الحانة/ bodega".

-"سأعود حين أحصل على السردين. سأبقي سرديني وسردينك معاً في الثلج ونتشارك فيه في الصباح. حين أعود تخبرني عن البيسبول".

-"لا يمكن أن يخسر يانكيو نيويورك".

-"لكنني أخاف من هنود كليفلاند".

-"آمن باليانكيين يا بنيّ. فكر بـ دي ماجيو العظيم".

-"أخاف من كل من نمور ديترويت وهنود كليفلاند".

-"إحذر وإلا ستخاف حتى من حمر سينسيناتي والجوارب البيضاء لـ تشيكاغو".

-"أدرسها ثم أخبرني حين أعود".

-"هل ترى أن علينا أن نشتري ورقة يانصيب تنتهي بخمسة وثمانين؟ غداً اليوم الخامس والثمانين".

قال الولد: "يمكننا فعل ذلك. لكن، ماذا عن السبعة والثمانين لرقمك القياسي العظيم؟"

-"لن يحدث هذا مرتين. هل ترى أنك تستطيع أن تجد خمسة وثمانين؟"

-"يمكنني طلب واحدة".

-"صفحة واحدة. تلك التي بدولارين ونصف. ممن يمكننا اقتراض ذلك؟"

-"ذلك سهل. يمكنني دائماً اقتراض دولارين ونصف".

-"أظن أنني ربما أستطيع اقتراض هذا أيضاً. لكنني لا أحاول الاقتراض. تقترض أولاً. ثم تروح تتسول".

قال الولد: "إبقَ دافئاً يا عجوز. تذكر أننا في سبتمبر".

قال الرجل العجوز: "الشهر الذي يأتي فيه السمك الكبير. يمكن لأي إنسان أن يصبح صياداً في مايو".

قال الولد: "سأذهب للحصول على السردين".

حين عاد الولد كان الرجل العجوز نائماً في الكرسي والشمس قد هبطت. أخذ الولد بطانية الجيش العتيقة عن السرير وفردها على ظهر الكرسي وفوق كتفي الرجل العجوز. كانتا كتفين غريبتين، لا تزالان قويتين مع أنهما عجوزين جداً، وكانت الرقبة لا تزال قوية أيضاً ولم تظهر التجاعيد كثيراً حين كان الرجل العجوز نائماً ورأسه يسقط إلى الأمام. كان قميصه قد رقع مرات كثيرة جداً حتى أنه كان مثل الشراع وبهتت الرقع متحولة إلى ظلال ألوان مختلفة من الشمس. لكن رأس الرجل العجوز كان عجوزاً جداً وفيها كانت عيناه مغمضتين لم تكن في وجهه حياة. استقرت الجريدة على ركبتيه وأمسك بها ثقل ذارعه في نسيم المساء. كان حافي القدمين.

تركه الولد هناك وحين عاد كان الرجل العجوز لا يزال نائماً.

قال الولد ووضع يده على إحدى ركبتيّ الرجل العجوز: "استيقظ يا عجوز".

فتح الرجل العجوز عينيه، وللحظة من الزمن، كان يعود من مسافة بعيدة. ثم ابتسم.

سأل: "ما الذي جلبتَه؟"

قال الولد: "عشاء. سنتناول عشاء".

ـ "لست جائعاً جداً".

ـ "تعالَ وكل. لا تستطيع صيد السمك وأنت لم تأكل".

قال الرجل العجوز وهو ينهض ويأخذ الجريدة ويطويها: "فعلت هذا". ثم بدأ يطوي البطانية.

قال الولد: "أبقِ البطانية ملفوفة عليك. لن تصيد السمك دون أن تأكل طالما أنا حي".

قال الرجل العجوز: "إذن، عِش طويلاً واعتنِ بنفسك. ماذا نأكل؟"

ـ "لوبياء سوداء ورز وموز مقلي وبعض اليخنة".

كان الولد قد أحضرها في وعاء معدني ذي طابقين من الشرفة. كانت مجموعتا السكاكين والشوك والملاعق في جيبه مع منديل ورق ملفوف حول كل مجموعة.

ـ "مَن أعطاك هذا؟"

ـ "مارتين. صاحب الشرفة".

ـ "لابد أن أشكره".

قال الولد: "سبق وشكرته أنا. لا داعي لأن تشكره".

قال الرجل العجوز: "سأعطيه لحم بطن سمكة كبيرة. هل قدم لنا هذا أكثر من مرة؟"

ـ "أظن هذا".

ـ "يجب أن أعطيه شيئاً أكثر من لحم البطن إذن. إنه يفكر بنا كثيراً جداً".

ـ "أرسل بيرة لاثنين".

ـ "أحب البيرة في علب أكثر".

ـ "أعرف. لكن هذه في قناني، بيرة هاتوي المحليّة، وأنا أرجع القنينتين".

قال الرجل العجوز: "هذا لطف شديد منك. هل نأكل؟"

أخبره الولد بلطف: "ظللتُ أطلب منك هذا، لم أرغب في فتح الوعاء حتى تستعد".

قال الرجل العجوز: "أنا مستعد الآن. احتجتُ فقط إلى وقت لأغتسل".

فكر الولد: أين اغتسلت؟ كان مورد ماء القرية على بُعد شارعين أسفل الطريق. فكر الولد: كان يجب أن أحضر ماء إليه هنا وصابوناً وبشكيراً جيداً. لِمَ أنا عديم التفكير إلى هذا الحد؟ يجب أن أحصل له على قميص آخر وجاكتة للشتاء ونوع من حذاء وبطانية أخرى.

قال الرجل العجوز: "يخنتك ممتازة".

طلب منه الولد: "أخبرني عن البيسبول".

قال بسعادة: "في الاتحاد الأمريكي، هم اليانكيون كما قلت".

أخبره الولد: "خسروا اليوم".

ـ "لا يعني هذا شيئاً. استعاد دي ماجيو العظيم قوته ثانية".

ـ "لديهم رجال آخرون في الفريق".

ـ "هذا طبيعي. لكنه هو الذي يشكّل الفرق. في الاتحاد الآخر، بين بروكلين وفيلادلفيا، يجب أن آخذ بروكلين. لكنني حينئذ سأفكر بـ ديك سيسلر وتلك الضربات الطويلة في الملعب القديم".

-"لا يوجد شبيه لها. إنه يضرب أطول كرة رأيتها في حياتي".

-"هل تتذكر حين كان يحضر إلى الشرفة؟ أردتُ أن آخذه لصيد السمك لكنني كنتُ خجلاً جداً فلم أدعه. ثم طلبتُ منك أن تطلب أنت منه وكنتَ هياباً جداً".

-"أعرف. كانت غلطة شنيعة. كان من المحتمل أن يذهب معنا. عندئذ كان هذا سيظلّ ذكرى طيلة حياتنا".

قال الرجل العجوز: "أحب أن آخذ دي ماجيو العظيم إلى صيد السمك. يقولون إن أباه كان صياد سمك. ربما كان فقيراً مثلنا وسيفهم".

-"لم يكن أبو سيسلر العظيم فقيراً أبداً وكان أبوه يلعب في المباريات الكبيرة حين كان في مثل عمري".

-"حين كنتُ في مثل عمرك كنتُ أقف أمام الصاري في سفينة مربعة الأشرعة تبحر إلى أفريقيا وقد رأيتُ أسوداً على الشواطىء في المساء".

-"أعرف. أخبرتني".

-"هل نتحدث عن أفريقيا أو عن البيسبول".

قال الولد: "البيسبول على ما أظن. حدثني عن جون جيه. مكجرو". ذكر الحرف الإسباني جوتا بدلاً من حرف جيه.

-"كان يأتي إلى الشرفة أحياناً أيضاً في الأيام الماضية. لكنه كان خشناً وأجش الصوت وصعباً حين يسكر. كان عقله مشغولاً بالخيل إضافة إلى البيسبول. على الأقل، كان يحمل قوائم خيل طيلة الوقت في جيبه ويردد دائماً أسماء الخيل في الهاتف".

قال الولد: "كان مديراً عظيماً. يرى أبي أنه أعظم المدراء".

قال الرجل العجوز: "لأنه كان يأتي إلى هنا في أغلب الأوقات. لو واصل دوروتشير المجيء إلى هنا كل عام لفكّر أبوك بأنه أعظم مدير".

-"من هو أعظم مدير حقاً: لوك أو مايك جونزاليز؟"

-"أظن أنهما متعادلان".

-"وأفضل صياد سمك هو أنت".

-"لا. أنا أعرف آخرين أفضل".

قال الولد: "Que va/ هراء. يوجد كثير من الصيادين الجيدين وبعض الصيادين العظام. لكنك توجد أنت فقط".

-"شكراً لك. أنتَ تسعدني. آمل ألا تظهر لي سمكة كبيرة جداً فتثبت خطأنا".

-"لا توجد مثل هذه السمكة إذا كنتَ لا تزال قوياً كما تقول".

قال الرجل العجوز: "قد لا أكون قوياً كما أظن. لكنني أعرف كثيراً من الحيل وعندي التصميم".

-"يجب أن تأوي إلى الفراش الآن لتكون نشيطاً في الصباح. سأرجع الأشياء إلى الشرفة".

-"تصبح على خير إذن. سأصحبكَ في الصباح".

قال الولد: "أنتَ ساعتي المنبهة".

قال الرجل العجوز: "العمر هو ساعتي المنبهة. لماذا يستيقظ الرجال العجائز باكراً إلى هذا الحد؟ هل يكون هذا حتى يعيشوا يوماً واحداً أطول؟"

قال الولد: "لا أعرف. كل ما أعرفه أن الأولاد صغار السن ينامون حتى وقت متأخر وبعمق".

قال الرجل العجوز: "أتذكر هذا. سأصحيك في الوقت المحدد".

-"لا أحب أن يصحيني هو. تكون الحال عندئذٍ كأنني أدنى مستوى".

-"أعرف".

-"نم جيداً يا عجوز".

خرج الولد. كانا قد أكلا دون نور على الطاولة وخلع الرجل العجوز بنطاله ومضى إلى السرير في الظلام. لف بنطاله ليكون منه مخدة بعد أن وضع جريدة داخله. لف نفسه بالبطانية ونام على الجرائد القديمة الأخرى التي غطت نوابض السرير.

نام بعد فترة قصيرة من الزمن وحلم بأفريقيا حين كان ولداً وبالشواطىء الطويلة الذهبية والشواطىء البيضاء، البيضاء بياضاً إلى حد يؤذي عينيك، والرؤوس البرية العالية الداخلة في البحر والجبال العظيمة بنية اللون. عاش على طول ذلك الساحل الآن كل ليلة وهو يسمع في أحلامه هدير زَبَدَ أمواج الشاطىء ويرى قوارب الأفارقة تقترب وهي تركب هذه الأمواج. اشتم رائحة القطران ومشاقة سطح السفينة وهو نائم واشتم رائحة أفريقيا التي حملها نسيم البر عند الصباح.

عادةً، حين يشم نسيم البر، يستيقظ ويرتدي ملابسه ليذهب ويوقظ الولد. لكن رائحة نسيم البر الليلة أقبلت مبكرة جداً وعرف في حلمه أن الوقت مبكر جداً وواصل

الحلم ليرى القمم البيضاء للجزر ترتفع من البحر ثم حلم بمرافىء جزر الكناري ومراسيها المختلفة.

لم يعد يحلم بالعواصف ولا بالنساء ولا بالأحداث العظيمة، ولا بالسمك الكبير، ولا بالقتال، ولا بمباريات القوة، ولا بزوجته. حلم فقط بأماكن الآن وبأسود على الشاطىء. لعبت الأسود مثل قطط صغيرة السن في الغسق وأحبها كما أحب الولد. لم يحلم بالولد أبداً. ببساطة استيقظ، نظر من خلال الباب المفتوح إلى القمر وفرد بنطاله وارتداه. بال خارج الكوخ ثم صعد الطريق ليوقظ الولد. كان يرتجف من برد الصباح. لكنه عرف أنه سيرتجف حتى يدفأ جسمه وأنه سرعان ما يجذف.

كان باب المنزل الذي يعيش فيه الولد غير مقفل ففتحه ومشى داخله بهدوء بقدميه الحافيتين. كان الولد نائماً في سرير سفريّ في الغرفة الأولى ورآه الرجل العجوز بوضوح في نور القمر المحتضر الذي دخل الكوخ. أمسك قدماً برفق ورفعها حتى استيقظ الولد واستدار ونظر إليه. أومأ الرجل العجوز وأخذ الولد بنطاله عن الكرسي إلى جوار السرير وارتداه وهو جالس على السرير.

خرج الرجل العجوز من الباب وخرج الولد وراءه. كان نعساً ووضع الرجل العجوز ذراعه على كتفيه وقال: "أنا آسف".

قال الولد: "Que va/هراء. هذا ما يجب أن يفعله رجل".

مشيا على الطريق إلى كوخ الرجل العجوز، وعلى طول

الطريق في الظلام، تحرّك رجال حفاة حاملين صواري قواربهم.

حين وصلا إلى كوخ الرجل العجوز أخذ الولد لفّات الحبل في السلة والحربون والمحجن وحمل الرجل العجوز الصاري مع الشراع المطوي على كتفه.

سأل الولد: "هل تريد قهوة؟"

ـ"سنضع العدة في القارب ثم نتناول بعض القهوة".

تناولا قهوة من علب حليب مكثّف في محل مبكر جداً يخدم صيادي السمك.

سأل الولد: "كيف نمتَ يا عجوز؟" كان يصحو الآن مع أنه كان لا يزال من الصعب عليه أن يترك نومه.

قال الرجل العجوز: "جيداً جداً يا مانولين. أحسّ بالثقة اليوم".

قال الولد: "كذلك أنا. الآن يجب أن أحضر سردينك وسرديني وأطعامك الطازجة. إنه يخرج عدتنا بنفسه. إنه لا يريد أبداً من أي شخص أن يحمل أي شيء".

قال الرجل العجوز: "نحن مختلفان، سمحتُ لك أنا بحمل الأشياء حين كنت في الخامسة من عمرك".

قال الولد: "أعرف هذا. سأعود حالاً. خذ قهوة أخرى. لدينا حساب هنا".

ابتعد، حافي القدمين على الصخور المرجانية، إلى بيت الثلج حيث حفظت الأطعام.

شرب الرجل العجوز قهوته ببطء. كانت هي كل ما سيتناوله طيلة النهار وكان يعرف بأن عليه تناولها. منذ مدة طويلة من الزمن حتى الآن أضجره الأكل فلم يحمل

أبداً غداءه. كانت لديه قنينة ماء في مقدمة الزورق وكان ذلك كل ما يحتاج إليه طوال النهار.

عاد الولد الآن بالسردينات وطعمين ملفوفين في جريدة وهبطا الدرب إلى الزورق، وهما يحسان بالرمل الذي يتخلله الحصى تحت أقدامهما، ورفعا الزورق وزلقاه في الماء.

ـ"حظاً سعيداً يا عجوز".

قال الرجل العجوز: "حظاً سعيداً".

ثبت أربطة حبل المجذافين في أوتاد مسندهما، وفيما هو ينحني إلى الأمام ضد دفع صفحتيّ المجذافين في الماء، بدأ يجذف خارجاً من المرفأ في الظلام. ظهرت قوارب أخرى تخرج من شواطيء أخرى إلى البحر وسمع الرجل العجوز صوت غمر ودفع مجاذيفها في الماء مع أنه لم يرها الآن وقد استقر القمر تحت التلال.

أحياناً يتكلم شخص في قارب. لكن أغلب القوارب كانت صامتة لا ينبعث منها سوى صوت غمر المجاذيف. وتناثرت متباعدة بعد أن خرجت من فم المرفأ واتجه كل منها إلى جزء من المحيط حيث كان يأمل أن يعثر على سمك فيه. عرف الرجل العجوز بأنه سيذهب بعيداً في عرض البحر وترك رائحة البر وراءه وجذف مبتعداً عنه إلى داخل رائحة الصباح الباكر النظيفة للمحيط. رأى وهج أعشاب الخليج الفوسفوري في الماء وهو يجذف في ذلك الجزء من المحيط الذي يدعوه الصيادون البئر العظيمة لأنه يوجد فيه عمق فجائي يبلغ سبعمائة قامة/ ١٢٦٠ متراً حيث تتجمع فيه كافة أصناف السمك بسبب الدوامة التي

يثيرها التيار باصطدامه بجدران أرضية المحيط المنحدرة. هنا توجد تركيزات أسماك القريدس والأطعام وأحياناً أسراب من سمك الحبّار في الحفر الأعمق وهي ترتفع إلى قرب السطح ليلاً حيث تتغذي بها كل الأسماك المتجولة.

في الظلام، أحس الرجل العجوز بالصباح يطلع وفيما هو يجذف سمع الصوت المرتعش وسمكة طائرة تترك الماء والحسيس الذي أطلقته أجنحتها القاسية وهي تحلق بعيداً في الظلام. كان ولعاً جداً بالسمك الطائر لأنه كان صديقه الرئيسي في المحيط. كان يشفق على الطيور، خصوصاً الخرشنات الصغيرة الدقيقة السمراء التي تطير دائماً وتبحث ولا تكاد تعثر على شيء، وفكر: "للطيور حياة أقسى من حياتنا نحن ما عدا الطيور المفترسة والطيور الثقيلة القوية. لماذا خلقوا طيوراً بهذه الدقة والنعومة كتلك الطيور التي يبتلعها البحر حين يصبح المحيط بهذه القسوة؟ البحر لطيف وجميل جداً. لكنه قد يصبح قاسياً جداً ويتحول إلى ذلك فجأة تماماً بينما طيور كتلك تطير، غائصة ومتصيدة، بأصواتها الخافتة الحزينة خلقت على نحو أرق من أن تصلح للبحر".

فكّر بالبحر دائماً كـ la mar/ بَحْرَة وهو ما يطلقه الناس عليها باللغة الإسبانية حين يحبونها. أحياناً يطلق أولئك الذين يحبونها النعوت السيئة عنها لكن هذه النعوت تطلق دائماً كأنها تطلق على امرأة. ويتحدث بعض صيادي السمك صغار السن، أولئك الذين يستعملون عوامات كوسائل طفو لحبالهم ولديهم زوارق بمحركات اشتروها حين جلبت لهم أكباد أسماك قرش البحر الكثير من المال،

عن البحر كـ el mar/ البحر وهو مذكّر. كانوا يتحدثون عنه كمنافس أو مكان أو حتى عدو. لكن الرجل العجوز فكر فيها دائماً كأنثى وكشيء يمنح أو يمنع هدايا عظيمة، وإذا قامت بأشياء عنيفة أو شريرة فهذا لأنها لم تستطع منع نفسها عن القيام بها. فكّر: القمر يؤثر عليها كما يؤثر على امرأة.

كان يجذف بثبات ولم يكن هذا جهداً كبيراً يبذله لأنه احتفظ بحدود سرعته تماماً وكان سطح المحيط منبسطاً ما عدا بعض تدويمات التيار العرَضية. كان يدع التيار يقوم بثلث العمل وحين بدأ النور ينتشر رأى بأنه قد وصل إلى مسافة أبعد مما كان قد أمل في أن يصل إليها في هذه الساعة.

فكّر: عملت في الآبار العميقة مدة أسبوع ولم أصطد شيئاً. اليوم سأعمل في المكان الذي تتجمع فيه أسراب سمك بنيتا وألباكور وقد توجد فيه سمكة كبيرة معها.

قبل أن يصبح الجو منيراً تماماً، أخرج أطعامه وراح ينجرف مع التيار. كان أحد الأطعام يغوص إلى أسفل على عمق أربعين قامة. والثاني إلى عمق خمس وسبعين قامة والثالث والرابع في أسفل في الماء الأزرق إلى عمق مائة قامة ومائة وخمس وعشرين قامة. تعلق كل طعم ورأسه إلى أسفل وقصبة الصنارة داخل سمكة الطعم وقد شدت وخيطت بإحكام وغطى كامل الجزء البارز من الصنارة وقوسها ورأسها بسردينات طازجة. وغرزت كل سردينة في كلا عينيها حتى أنها كونت نصف إكليل من الفولاذ الناتىء. لم يكن أي جزء من الصنارة، يمكن

لسمكة كبيرة أن تتحسسه، إلاّ زكي الرائحة وطيب المذاق.

كان الولد قد أعطاه سمكتيّ تونا أو ألباكور صغيرتين، تدلتا من الخيطين الأعمقين مثل ثقلي رصاص وعلق على الآخرين سمكة عداء زرقاء كبيرة وسمكة خطاف صفراء كان قد استعملهما من قبل؛ لكنهما كانتا لا تزالان في حالة جيدة وقد أضفت عليهما السردينات الممتازة رائحة وجاذبية. عقد كل خيط بسمك قلم رصاص كبير على عصا خضراء لينة حتى أن أية جذبة أو لمسة على الطعم تجعل العصا تغوص وكان لكل خيط لفتان بطول أربعين قامة يمكن أن تثبت بقوة إلى اللفات الاحتياطية الأخرى حتى أن كل سمكة قد تأخذ ما يزيد عن ثلاثمائة قامة من الخيط إذا احتاج الأمر إلى هذا.

راقب الرجل غوص الثلاث عصي من فوق جانب الزورق وجذف بلطف لكي يبقي الخيوط مشدودة إلى أعلى وإلى أسفل وفي أعماقها الصحيحة. كان الجو منيراً تماما وكانت الشمس ستبزغ الآن في أي لحظة.

ارتفعت الشمس باهتة من البحر ورأى الرجل العجوز القوارب الأخرى، منخفضة في الماء وهي تتجه نحو الشاطىء تماماً، وقد انتشرت عبر التيار. زاد سطوع الشمس وهبط الوهج على الماء، وفيما هي ترتفع صافية، عكسها البحر المنبسط على عينيه حتى أنها آذتها بحدة وجذف دون أن ينظر إليها. نظر إلى أسفل إلى داخل الماء وراقب الخيوط التي دخلت غائصة في ظلام الماء. أبقاها على نحو أكثر استقامة مما يبقيها أي شخص آخر، حتى

كان في كل مستوى من ظلام التيار طُعم ينتظر في المكان الذي رغب هو فيه أن يوجد بالضبط لأي سمكة تسبح هناك. أما الصيادون الآخرون فإنهم يتركونها تنجرف مع التيار وتكون أحياناً على عمق ستين قامة بينما يفكرون بأنها على عمق مائة قامة.

فكّر: لكنني أبقيها في المكان المحدّد تماماً. لم يحالفني أي حظ فقط. لكن، من يعرف؟ ربما اليوم. كل يوم هو يوم جديد. يحسن أن تكون محظوظاً. لكنني أفضل أن أكون دقيقاً. ثم، حين يقبل الحظ، تكون مستعداً.

ارتفعت الشمس الآن ساعتين ولم تؤذ عينيه كثيراً جداً حين النظر إلى الشرق. كانت هناك ثلاثة قوارب فقط في مدى نظره الآن وقد بدت منخفضة جداً وبعيدة جداً عنه قرب الشاطىء.

فكّر: طيلة حياتي والشمس المبكرة تؤذي عينيّ. لكنهما لاتزالان جيدتين. في المساء، يمكنني النظر إليها مباشرة دون أن يعميا. إن فيها قوة أشد في المساء أيضاً. لكنها في الصباح مؤذية.

في تلك اللحظة تماماً، رأى طائر بارجة جارحاً بجناحيه الطويلين السوداوين يحوم في السماء أمامه. قام بانقضاض سريع مائلاً إلى أسفل على جناحيه المندفعين إلى الخلف ثم حوم ثانية.

قال الرجل العجوز بصوت عالٍ: "وجد شيئاً. إنه لا ينظر فقط".

جذف ببطء وثبات نحو المكان الذي كان الطائر يحوم فيه. لم يسرع وأبقى خيوطه مستقيمة إلى أعلى وإلى أسفل.

لكنه شقّ طريقه مع التيار قليلاً حتى يظلّ اصطياده صحيحاً لكن بأسرع مما كان سيصطاد إذا لم يحاول استعمال الطائر.

ارتفع الطائر إلى أعلى في الجو وحوّم ثانية، وجناحاه بلا حراك. ثم غاص فجأة ورأى الرجل العجوز أسماكاً طائرة تندفع خارجةً من الماء وتبحر بيأس فوق سطح الماء.

قال الرجل العجوز بصوت عال: "دلفين. دلفين كبير".

حطّ مجذافيه في القارب وأخرج خيطاً صغيراً من تحت مقدمة القارب. كان به شَرَكٌ سلكيّ وصنارة متوسطة الحجم وعلّق بها سردينة كطعم. ألقاه من فوق جانب القارب ومن ثم ثبّته بحلقة مسمار في مؤخرة القارب. ثم وضع طعماً في خيط آخر وتركه يلتف في ظل المقدمة. عاد إلى التجذيف ومراقبة الطائر الأسود طويل الجناحين الذي كان يدور الآن على ارتفاع منخفض فوق الماء.

بينما هو يراقب، انقض الطائر ثانية مميلاً جناحيه إلى الخلف للغوص ثم رفرف بهما بعنف وبلا جدوى وهو يلاحق الأسماك الطائرة. رأى الرجل العجوز البروز الطفيف في الماء الذي أحدثته الدلافين الضخمة وهي تتعقب السمك الهارب. شقّت الدلافين طريقها خلال الماء تحت خط هروب السمك واستقرت في الماء، مندفعةً بسرعة، حين سقطت الأسماك. فكر: إنه سرب كبير من الدلافين. إنها منتشرة في مسافة شاسعة ولدى الأسماك الطائرة فرصة ضئيلة. لم يكن أمام الطائر أية فرصة. كانت الأسماك الطائرة كبيره عليه وكانت تسير بسرعة كبيرة

جداً.

راقب الأسماك الطائرة تنبجس خارجة من الماء مرات ومرات وحركات الطائر غير الفعّالة. فكّر: ابتعد ذلك السرب عني. إنه يبتعد بسرعة كبيرة جداً وإلى مسافة كبيرة جداً. لكن، ربما التقط سمكة ضلّت طريقها وربما تكون سمكتي الكبيرة في مكان حول السرب. لابد أن تكون سمكتي الكبيرة في مكان ما.

ارتفعت السحب فوق الأرض مثل جبال وبدا الساحل مجرد خط طويل أخضر وخلفه تلال رمادية زرقاء. الماء أزرق داكن، داكن إلى حد يكاد يجعله بنفسجيّ اللون. حين نظر إلى أسفل داخل الماء رأى اللون الأحمر يتخلل العوالق في الماء المظلم والضوء الغريب الذي تحدثه الشمس الآن. راقب خيوطه ليراها تندفع مستقيمة إلى أسفل مختفيةً عن الأنظار في داخل الماء وسَعِدَ لرؤيته الكثير من العوالق لأن هذا يعني وجود سمك. عنى الضوء الغريب الذي أحدثته الشمس في الماء، وقد ارتفعت الشمس الآن إلى علو أكبر، أن الطقس جيد وكذلك عنى شكل السحب فوق الأرض. لكن الطائر يكاد يختفي عن الأنظار الآن ولم يظهر شيء فوق سطح الماء سوى بقع من أعشاب سارجاسو الصفراء التي بيضتها الشمس وطفو أرجواني مشكّل على شكل نماذج قزحية هلامية لأسماك هلامية بجانب القارب تماماً. انقلبت على جنبها ثم عدلت وضعها. طفت بخفة كفقاعة بحافتها الخلفية السلكية الأرجوانية المهلكة الطويلة وقد امتدت إلى مسافة ياردة خلفها في الماء.

قال الرجل: "أجوا مالا/ Agua mala أنتِ عاهرة".

من حيث انحرف قليلاً فوق مجذافيه، نظر إلى أسفل في الماء ورأى الإسماك الدقيقة التي تتلون كخيوط ذيلية تسبح بينها وتحت الظل الصغير الذي كونته الفقاعة وهي تنجرف. إن لديها مناعة ضد سمها. لكن ليس لدى الرجال مناعة وحين تعلق إحدى الخيوط بخيط الصنارة وتستقر هناك لزجه وأرجوانية اللون بينما الرجل العجوز يرمي بسمكة إلى داخل الزورق، سيصاب بتورمات وتقرحات في ذراعيه ويديه من تلك التي يسببها لبلاب سام أو بلوط سام. لكن هذه التسممات من أجوا مالا تحدث بسرعة وتخبط مثل سير طرف سوط.

كانت الفقاقيع القزحية جميلة. لكنها كانت أزيف الأشياء في البحر ويحب الرجل العجوز أن يرى سلاحف البحر الكبيرة تأكلها. رأتها السلاحف، تقدمت منها من المقدمة، ثم أغمضت عيونها وقد غطاها درعها الواقي تماماً وأكلت تلك الخيوط وكل شيء. يحب الرجل العجوز أن يرى سلاحف البحر تأكلها ويحب أن يمشي عليها على شاطىء البحر بعد هبوب عاصفة ويسمعها تفرقع حين يدوس عليها بباطن قدميه القرني.

إنه يحب السلاحف الخضراء والسلاحف صقرية المنقار بجمالها وسرعتها وقيمتها العظيمة بينما يكن احتقاراً ودياً للسلاحف الهائلة الغبية الصفراء بغلافها المدرع والغريبة بممارستها الحب وهي تأكل بسعادة الأسماك الهلامية وعيونها مغمضة.

لا يساوره شعور صوفي حول السلاحف مع أنه أبحر في

قوارب صيد سلاحف لعدة سنين. كان يأسف عليها كلها، حتى على السلاحف ذات الظهور الصندوقية التي بطول الزورق وتزن طناً. ليس في قلوب أغلب الناس رحمة نحو السلاحف لأن قلب السلحفاة يظل يخفق لساعات بعد أن تقطع وتذبح. لكن الرجل العجوز فكّر: لدي قلب كقلبها وقدماي ويداي كأقدامها وأيديها. أكل البيض الأبيض ليبث في نفسه قوة. إنه يأكلها طيلة مايو ليصبح قوياً في سبتمبر وأكتوبر ليصطاد الأسماك الكبيرة حقاً.

إنه يشرب أيضاً كوب زيت كبد قرش البحر كل يوم من برميل ضخم في الكوخ حيث يبقي كثير من الصيادين عدتهم. إنه موجود هناك لكافة الصيادين الذين يريدونه. أغلب الصيادين يكرهون مذاقه. لكنه لم يكن أسوأ من الصحو في الساعة التي يصحون فيها وكان جيداً جداً ضد كافة أمراض البرد والرشوحات وجيداً للعيون.

نظر الرجل العجوز إلى أعلى الآن ورأى الطائر يحوم ثانية.

قال بصوت عال: "لقد وجد سمكة". لم تكسر سمكة طائرة سطح الماء ولم يوجد أي سمك طُعم متناثر هناك. لكن، فيما كان الرجل العجوز يراقب، ارتفعت سمكة تونا صغيرة في الهواء واستدارت وسقطت ورأسها إلى أمام داخل الماء. لمعت سمكة التونا فضية في الشمس وبعد أن سقطت عائدة إلى داخل الماء ارتفعت سمكة أخرى وأخرى وكانت تقفز في كل الاتجاهات، ماخضة الماء وقافزة قفزات طويلة وراء الطُعم. كانت تدور حوله

وتدفعه.

فكر الرجل العجوز: إذا لم تنطلق بسرعة كبيرة جداً فإنني سأصل إلى وسطها، وراقب السرب يحول الماء إلى زبد أبيض والطائر يهبط ويغطس إلى أسماك الطعم التي أجبرت على الصعود إلى السطح وهي فزعة.

قال الرجل العجوز: "الطائر عون كبير". في تلك اللحظة تماماً توتر خيط مؤخرة القارب تحت قدمه حيث أبقى بكرة الخيط، فأسقط مجذافيه وأحس بثقل جذب سمكة التونا الصغيرة المرتعش وهو يمسك بالخيط بشدة وبدأ يسحبه نحوه. ازداد الارتعاش وهو يسحب الخيط نحوه ورأى ظهر السمكة الأزرق في الماء وذهب جنبيها قبل أن يؤرجحها فوق جانب القارب ثم إلى داخله. استقرت السمكة في مؤخرة القارب في الشمس، صلبة البنيان وذات شكل شبيه بطلقة بندقية، وعيناها الكبيرتان غير الذكيتين تحملقان وهي تخبط مزهقةً روحها على ألواح القارب بضربات سريعة مرتعشة بذيلها النظيف سريع الحركة. ضربها الرجل العجوز على رأسها رحمة بها وركلها، بينما جسدها لا يزال يرتعد تحت ظل مؤخرة القارب.

قال بصوت عال: "الباكور. ستكون طعماً جميلاً. ستزن عشرة أرطال".

لا يتذكر متى بدأ يتكلم أول مرة بصوت عالٍ وهو وحده. غنى حين كان وحيداً في الأيام الخوالي، وقد غنى أحياناً في الليل حين كان وحيداً يقود قوارب صيد الأسماك وصيد السلاحف أثناء نوبة حراسته في السفن. لعله بدأ

بالكلام بصوت عالٍ، وهو وحيد، حين ترك الولد القارب. لكنه لا يتذكر. حين كان هو والولد يصطادان معاً اعتادا على الكلام حين يكون هذا ضرورياً فقط. كانا يتكلمان في الليل أو حين يبقى زورقهما في المرفأ بسبب عاصفة يثيرها طقس سيء. اعتبر أن من الجيد عدم الكلام في البحر بلا ضرورة واعتبر الرجل العجوز الأمر على هذا الشكل واحترمه دائماً. لكنه الآن يعبر عن أفكاره بصوت عالٍ مرات عديدة حيث لا يوجد أحد يزعجه.

قال بصوت عالٍ: "لو سمعني الآخرون أتكلم بصوت عالٍ لظنوا أنني مخبول. لكن، حيث أنني لست مخبولاً، فلن أهتم. لدى الأغنياء أجهزة مسموعة تتكلم معهم في قواربهم وتنقل إليهم نتائج البيسبول".

فكر: ليس الآن وقت التفكير بالبيسبول. الآن وقت التفكير في أمر واحد فقط. ذلك الذي ولدت من أجله. فكر: قد تكون هناك سمكة كبيرة حول ذلك السرب. لقد أمسكت فقط بسمكة شاردة من أسماك الباكور التي كانت تتغذى. لكنها تنطلق بعيداً وبسرعة. كل ما يظهر على السطح اليوم ينطلق بسرعة كبيرة وإلى الشمال الشرقي. هل يكون هذا وقت نهار؟ أم أنه علامة طقس لا أعرفها؟

لم ير خضرة الشاطيء الآن بل قمم التلال الزرقاء فقط التي بدت بيضاء كما لو كانت مغطاة بالثلج والسحب التي تشبه جبال ثلج عالية فوقها. كان البحر شديد الدكنة وكون النور مناشير في الماء. أزالت الشمس العالية الآن العديد من بقع العوالق المنيرة وكانت فقط المناشير العميقة

العظيمـة في الماء الأزرق هي التي رآها الرجل العجوز الآن وخيوطه تغطس مستقيمةً إلى أسفل داخل الماء الذي يصل عمقه إلى ميل.

هبطت أسماكُ التونا ثانيةً إلى أسفل، فصيادو السمك يدعون كافة الأسماك من ذلك النوع بالتونا ويميزون بينها فقط بأسمائها الصحيحة حين يبيعونها أو يستبدلونها بالأطعام. الشمس حارّة الآن وأحس الرجل العجوز بها على قفا رقبته وأحسّ بالعرق يقطر إلى أسفل ظهره وهو يجدف.

فكر: يمكنني أن أنجرف فقط مع التيار وأنام وأضع عقدة خيط حول أصبع قدمي لتصحيني. لكن اليوم هو الخامس والثمانين وسأصطاد اليوم صيداً حسناً.

حينئذ تماماً، وفيما هو يراقب خيوطه، رأى إحدى العصي الخضراء تغطس بحدة.

قال: "نعم. نعم". وحط المجدافين في القارب دون أن يرجّه. مدّ يده نحو الخيط وأمسك به برقة بين إبهام وسبابة يده اليمنى، لم يحس بأي توتر ولا ثقل وأمسك بالخيط بخفة. ثم أتاه مرة أخرى. هذه المرة كان جذباً متردداً، ليس قوياً ولا ثقيلاً، وعرف بالضبط ماذا كان. على عمق مائة قامة في الأسفل كانت سمكة مارلين تأكل السردينات التي كانت تغطي حدّ الصنارة المدبب وساقها حيث برزت الصنارة المصنوعة يدوياً خارجةً من رأس التونا الصغيرة.

أمسك الرجل العجوز بالخيط برقة ورفق بيده اليسرى، وحلّه عن القصبة. يمكنه الآن أن يدعه يجري خلال أصابعه دون أن تشعر السمكة بأي توتر.

فكّر: سمكة على هذا البعد لابد أن تكون ضخمة في هذا الشهر. كليها يا سمكة. كليها. من فضلك كليها. كم هي طازجة وأنتِ في أسفل هناك على بعد مائة قدم في ذلك الماء البارد في الظلام. قومي بدورة أخرى في الظلام وعودي وكليها.

أحس بالجذب الخفيف الرقيق ثم بجذبة أشدّ حين لا بد أن يكون انتزاع رأس سردينة من الصنّارة أصعب. ثم لم يحدث أي شيء.

قال الرجل العجوز بصوت عالٍ: "تعالَي. دوري دورة أخرى. شمّيها فقط. أليست طيّبة؟ كليها تماماً الآن ثم هناك التونا. صلبة وباردة وطيبة. لا تخجلي يا سمكة. كليها".

انتظر والخيط بين إبهامه وأصبعه، مراقباً إياه والخيوط الأخرى بنفس الوقت فقد تسبح السمكة صاعدة أو هابطة. ثم جاءت نفس اللمسة الرقيقة الجاذبة مرة أخرى.

قال الرجل العجوز بصوت عالٍ: "ستأخذها. ساعدها يا إلهي على أن تأخذها".

لكنها لم تأخذها. أفلتتْ ولم يحسّ الرجل العجوز بشيء.

قال: "لم يكن يمكنها الإفلات. المسيح يعلم أنها لم يكن يمكنها الإفلات. إنها تدور دورةً. ربما كانت قد علقت بصنارة بالسابق وهي تذكر شيئاً عن هذا".

ثم أحس باللمسة الرقيقة في الخيط وشعر بالسعادة.

قال: "إنها فقط دورتها. ستأخذها".

شعر بالسعادة وهو يحس بالجذب اللطيف ثم أحسّ بشيء قاسٍ وثقيل على نحو لا يصدق. كان ثقل السمكة وترك الخيط ينزلق هابطاً إلى أسفل وأسفل وأسفل حالاً أول لفّتين إحتياطيتين. بينما الخيط يهبط، منزلقاً بخفة من بين أصابع الرجل العجوز، ظلّ يحس بالثقل الكبير، مع أن ضغط إبهامه وأصبعه كان لا يكاد يلحظ.

قال: "يا لها من سمكة. التقطت الطعم من جنبه في فمها الآن وها هي تتحرك مبتعدة به".

فكر: عندئذ ستدور وتبتلعه. لم يقل ذلك لأنه كان يعرف بأنك لو قلتَ شيئاً جيداً فإنه قد لا يحدث. عرف كم كانت ضخمة تلك السمكة وفكر فيها تتحرك مبتعدة في الظلام وقد امسكت التونا في فمها بالعرض. في تلك اللحظة أحس بها تتوقف لكن الثقل ظلّ هناك. ثم تزايد الثقل وأرخى المزيدَ من الخيط. شدد ضغط إبهامه وأصبعه للحظة وتزايد الثقل وراحت تهبط مباشرة إلى أسفل.

قال: "أخذتها. الآن، سأدعها تأكلها تماماً".

ترك الخيط ينزلق من خلال أصابعه بينما مدّ يده اليسرى وثبت النهاية الحرة من اللفّتين الإحتياطيتين بعروة لفتيْ الخيط التالي الإحتياطيتين. أصبح الآن مستعداً. كان لديه ثلاث لفّات بطول أربعين قامة لكل لفة من الخيط كاحتياط، إضافة إلى اللفة التي كان يستعملها.

قال: "كُلي منه أكثر قليلاً. كُليه تماماً".

فكر: كُليه حتى يدخل حرف الصنارة إلى داخل قلبكِ ويقتلك. إصعدي بهدوء ودعيني أضع الحربون فيك. حسناً. هل أنتِ مستعدة؟ هل استغرقتِ وقتاً كافياً تماماً

وأنت جالسة إلى المائدة؟

قال بصوت عالٍ وجذب بقوة بكلتا يديه: "الآن!" كسب ياردة من الخيط ثم جذب مرة أخرى ومرة أخرى، متمايلاً مع كل ذراع بالتناوب على الحبل بكل قوة ذراعيه وثقل جسمه المنكمش.

لم يحدث شيء. ابتعدت السمكة ببطء فقط ولم يستطع الرجل العجوز رفعها بوصة واحدة. كان خيطه قوياً ومصنوعاً للأسماك الثقيلة وأمسك به على ظهره حتى أصبح متوتراً إلى حد أن قطرات الماء راحت تتقافز عنه. ثم بدأ الخيط يطلق صوت هسيس بطيء في الماء وظلّ يمسك به، مثبتاً نفسه على مقعد المجذاف ومائلاً إلى الخلف عكس الجذب. بدأ القارب يتحرك ببطء بعيداً باتجاه شمال غرب.

تحركت السمكة باطراد وانطلقا ببطء على الماء الهادىء. كانت الأطعام الأخرى لا تزال في الماء لكنه لم يكن هناك ما يمكن فعله.

قال الرجل العجوز بصوت عال: "ليت الولد معي. تجرني سمكة وأنا مربط الحبال الجار لها. يمكنني أن أربط الخيط تماماً. لكنها قد تقطعه حينذاك. يجب التمسك بها قدر ما أستطيع وإعطائها خيطاً حين يجب أن تأخذه. الحمد لله على أنها تمضي إلى الأمام ولا تهبط إلى أسفل".

ماذا سأفعل إذا قررت أن تهبط إلى أسفل، لا أعرف. ماذا سأفعل لو غاصت عميقاً وماتت هناك لا أعرف. لكنني سأفعل شيئاً. هناك أشياء كثيرة يمكنني فعلها.

أمسك بالخيط على ظهره وراقب ميله في الماء والزورق

يتحرك باطراد إلى الشمال الغربي.

فكر الرجل العجوز: سيقتلها هذا. لا يمكنها الجر هكذا إلى الأبد. لكن وبعد أربع ساعات ظلت السمكة تسبح بثبات خارجة إلى عرض البحر، جارة الزورق، والرجل العجوز لا يزال ثابتاً بقوة والخيط على ظهره.

قال: "كان الوقت ظهراً حين أعلقتها. ولم أرها أبداً".

كان قد دفع قبعته القشية بقوة على رأسه قبل أن يعلق السمكة وكانت تحز في جبهته. كان عطشاناً أيضاً فركع على ركبتيه وتحرك، محاذراً ألا يهز الخيط، وتقدم قدر ما يمكنه هذا نحو مقدمة القارب ووصل إلى قنينة الماء بيد واحدة. فتحها وشرب قليلاً. ثم استراح على المقدمة. استراح جالساً على الصاري والشراع المفكوكين والموضوعين في القارب وحاول ألا يفكر بل أن يحتمل الألم فقط.

ثم نظر وراءه ورأى أن ليس هناك أي أرض ترى.

فكر: لن يشكل ذلك فرقاً. يمكنني دائماً أن أعود إلى الأرض على الوهج المنبعث من هافانا. بقيت ساعتان حتى تغرب الشمس وقد تصعد السمكة قبل ذلك. إذا لم تصعد فقد تصعد مع القمر. وإذا لم تصعد في ذلك الوقت فقد تصعد مع شروق الشمس. أنا لا أعاني من أي تشنجات وأحس بأنني قوي. إنها هي التي لديها الصنارة في فمها. لكن، أي سمكة تجذب على ذلك النحو. لابد أنها أطبقت فمها بقوة على السلك. ليتني أستطيع رؤيتها. ليتني أراها مرة واحدة لأعرف ما الذي يواجهني.

لم تغير السمكة مسارها ولا اتجاهها طيلة تلك الليلة قدر

ما أمكن للرجل معرفة هذا من مراقبة النجوم. أصبح الطقس بارداً بعد أن هبطت الشمس وجف عرق الرجل العجوز على ظهره وعلى ذراعيه وعلى ساقيه العجوزين وأحس بالبرودة. خلال النهار، كان قد أخذ الكيس الذي غطى صندوق الأطعام وفردة في الشمس ليجف. بعد أن هبطت الشمس ربطه حول رقبته فتدلى هابطاً على ظهره ووضعه بحذر تحت الخيط الذي كان يمر فوق كتفيه الآن. وأصبح الكيس وسادة للمخيط ووجد طريقة للانحناء إلى أمام على المقدمة حتى أصبح هو مستريحاً إلى حد ما. كان الوضع بالفعل أقل إزعاجاً إلى حد ما، لكنه فكر به كوضع مريح تقريباً.

فكر: لا يمكنني فعل شيء معها ولن تستطيع فعل شيء معي. طالما بقيت على هذه الحال.

وقف ذات مرة وبال من فوق جانب الزورق ونظر إلى النجوم وتحقق من خط سيره. بانَ الخيط كخط فوسفوري في الماء يمتد مستقيماً من كتفيه. كانا يتحركان ببطء زائد الآن ولم يكن وهج هافانا قوياً، فيعرف أن التيار لابد يدفعهم باتجاه الشرق. فكر: إذا ضيعت تألق هافانا فلابد أننا نسير أبعد باتجاه الشرق. إذا بقي مسار السمكة بلا تغيير، فلابد أن أراه لساعات كثيرة أخرى. فكر: ترى كيف هي نتائج البيسبول في المباريات الكبرى اليوم. سيكون مدهشاً سماع هذا من جهاز إذاعه مسموعة. ثم فكر: فكر بهذا دائماً. فكر بما تفعله. يجب ألا تفعل أي شيء غبي.

ثم قال بصوت عالٍ: "ليتَ الولد معي. ليساعدني

وبرى هذا".

فكّر: يجب ألاّ يبقى أي إنسان وحيداً في كبره. لكن هذا شيء لا يمكن تفاديه. يجب أن أتذكر أن آكل التونا قبل أن تتلف لأحافظ على قوتي. تذكّر، مهما تكن شهيتك لهذا ضعيفة، يجب أن تأكل التونا في الصباح. قال لنفسه: تذكّر.

في الليل، اقترب خنزيرا بحر من القارب وسمعهما يتدحرجان وينفخان. ميز الفرق بين ضجة النفخ التي يطلقها الذكر والنفخة المتنهدة للأنثى.

قال: "إنهما جيدان. إنهما يلعبان ويمزحان ويحب أحدهما الآخر. إنهما إخواننا مثل السمك الطائر".

ثم بدأ يرثي السمكة الكبيرة التي أعلقها. فكر: إنها مدهشة وغريبة ومن يعرف كم عمرها. أبداً لم اصطد سمكة قوية كهذه ولا سمكة تصرفت على هذا النحو الغريب. لعلها أحكم من أن تقفز. كان يمكنها أن تحطمني بالقفز أو بالاندفاع العنيف. لكنها قد تكون أعلقت مرات كثيرة قبل هذه المرة وهي تعرف أن هذه هي الطريقة التي عليها أن تقاتل بها. إنها لا تعرف أن رجلاً واحداً فقط يقف ضدها، كما لا تعرف أنه رجل عجوز. لكن، أي سمكة عظيمة هي وكم ستجلب في السوق إذا كان اللحم جيداً. أخذت الطعم كذكر وهي تجذب كما يجذب ذكر وليس في قتالها أي فزع. أتساءل إن كانت لديها خطة أو أنها يائسة قدر يأسي أنا؟

تذكّر الوقت الذي أعلق واحداً من زوجي سمك المارلين بصنارة. يسمح الذكر للسمكة الأنثى بالأكل

أولاً، فقاتلت السمكة العالقة، الأنثى، قتالاً عنيفاً يائساً يسيطر عليه الفزع حتى أنها ما لبثت أن أنهكت قواها خلال وقت قصير، وبقي الذكر معها طيلة الوقت، منخطياً الخيط وحائماً معها على السطح. بقي قريباً جداً منها حتى خشي الرجل العجوز أن يقطع الخيط بذيله الذي كان حاداً كمنجل وبحجم منجل وشكله تقريباً. حين طعنها الرجل العجوز برمح الخطاف وخبطها بهراوته، ممسكاً بمنقارها سيفيّ الشكل من حافته الشبيهة بورقة صنفرة ضارباً إياها بالهراوة على قمة رأسها حتى تحول لونها إلى لون قريب من ظهر مرايا، ثم رافعاً إياها بمساعدة الولد إلى القارب، بقي الذكر إلى جانب القارب. ثم، وبينما الرجل العجوز يحرر الخيوط ويعد الحربون، قفز الذكر عالياً في الهواء إلى جانب القارب ليرى أين كانت الأنثى ثم هبط إلى أسفل عميقاً، وفرد جناحيه الخزاميين، اللذين كانا زعنفتيه الصدريتين، على وسعيهما وقد ظهرت خطوطها الخزامية العريضة. تذكر الرجل العجوز: كان جميلاً، وبقي قريباً.

فكر الرجل العجوز: ذلك كان أحزن شيء رأيته منهما طيلة حياتي. كان الولد حزيناً أيضاً وطلبنا منها الصفح وذبحناها في الحال.

قال بصوت عال: "ليتَ الولد هنا" واستقر على ألواح المقدمة المستديرة وأحس بقوة السمكة العظيمة من خلال الخيط الذي كان يشده إلى كتفيه وهي تتحرك باطراد نحو المكان الذي اختارته.

فكر: حين يصبح من الضروري، بسبب غدري بها،

أن تختار هذه المرة.

كان اختيارها أن تبقى في المياه العميقة المظلمة بعيداً عن كافة الحبائل والشراك وأعمال القدر. كان اختياري هو أن أذهب إلى هناك لأجدها بعيداً عن كل الناس. بعيداً عن كل الناس في العالم. نحن الآن مرتبطَين معاً وظللنا كذلك منذ الظهر. ولا أحد يساعد أي واحد منا.

فكّر: لعلي ما كان يجب أن أكون صياد سمك. لكن ذلك ما ولدتُ من أجله. يجب أن أتذكر بالتأكيد أن آكل التونا بعد أن يحلّ النور.

في وقتٍ قبل حلول نور النهار، التقط شيء أحد الأطعام التي كانت خلفه. سمع العصا تتكسر والخيط يبدأ في الاندفاع منفلتاً فوق شفير الزورق. في الظلام، استلّ سكينه المغمدة، ومركزاً كامل توتر السمكة على كتفه الأيسر، مال إلى الخلف وقطع الخيط على خشب شفير القارب. ثم قطع الخيط الآخر الأقرب إليه وفي الظلام ثبّت طرفي اللفتين الاحتياطيتين السائبتين تثبيتا قوياً. عمل بمهارة بيد واحدة ووضع قدمه على اللفتين ليمسك بهما وهو يجذب عقده بإحكام. أصبح لديه الآن ست لفات خيط احتياطية. لديه الآن لفتان من كل طعم فَصله ولفتان من الطعم الذي التقمته السمكة وكانت كلها موصولة معاً.

فكّر: بعد أن يحلّ النور، سأعود إلى طعم الأربعين قامة وأقطعه أيضاً وأوصل اللفات الاحتياطية. سأخسر مائتي قامة من الحبال القطلونية الجيدة والصنارات وأسلاك قواعد الصنارة. يمكن استبدال تلك كلها. لكن، من

سيعوّض هذه السمكة إذا اصطدتُ سمكة وقطعتْ خيط هذه السمكة وأطلقت سراحها؟ لا أعرف ما هي تلك السمكة التي التقمت الطعم في هذه اللحظة تماماً. قد تكون سمكة مارلين أو سمكة أبو سيف أو قرش بحر. لم أحس بها أبداً. يجب أن أتخلص منها بأسرع وقت.

قال بصوت عالٍ: "ليت الولد معي".

فكّر: لكن الولد ليس معك. ليس معك إلا نفسك فقط وبحسن بك أن تعمل عائداً إلى الخيط الأخير الآن، في الظلام أو ليس في الظلام، وتقطعه وتربط اللفتين الاحتياطيتين.

هكذا فعل. كان العمل في الظلام صعباً وذات مرة اندفعت السمكة فجذبته وطرحته أرضاً على وجهه وأصابته بجرح تحت عينه. سال الدم أسفل وجنته إلى مسافة قصيرة. لكنه تخثّر وجفّ قبل أن يصل إلى ذقنه وسار في طريقه عائداً إلى مقدمة القارب واستراح على الخشب. عدل وضع الكيس تحت الخيط وحرك الخيط بحرص حتى استقر على جزء جديد من كتفيه، وبعد أن ركزه على كتفيه، أحس بجذب السمكة ثم تحسس بيده تقدم الزورق عبر الماء.

فكّر: تُرى ما الذي جعلها تندفع هكذا. لابد أن السلك انزلق على تل ظهرها الكبير. من المؤكد أن ظهرها لا يحس بالألم الذي يحس به ظهري. لكنها لن تستطيع سحب هذا الزورق إلى الأبد، مهما كانت ضخمة. وأزيل الآن كل شيء قد يثير المتاعب ولدي خيط احتياطي كبير؛ كل ما يطلبه الإنسان.

قال برقة، بصوت عالٍ: "يا سمكة، سأبقى معك حتى أموت".

فكّر الرجل العجوز: إنها ستبقى معي أيضاً على ما أظن، وانتظر حتى يحلّ النور. أصبح الطقس بارداً الآن في الوقت السابق لطلوع نور النهار وألصق نفسه بالخشب ليحس بالدفء. فكّر: يمكنني فعل هذا طالما استطاعت هي فعله. وفي أول النور، امتد الخيط بعيداً وإلى أسفل في الماء. تحرك القارب باطراد وحين ارتفعت حافة الشمس الأولى وقعت على كتف الرجل العجوز الأيمن.

قال الرجل العجوز: "إنها تتجه شمالاً". فكّر: كان التيار سيوجهنا بعيداً نحو الشرق. ليتها تدور لتسير مع التيار. سيبين هذا بأنها بدأت تتعب.

حين ارتفعت الشمس أكثر، أدرك الرجلُ العجوز بأن السمكة لا تحس بالتعب. هناك علامة مرضية واحدة فقط. بينَ ميل الخيط أنها كانت تسبح على عمق أقل. لم يعنِ ذلك بالضرورة أنها ستقفز. لكنها قد تقفز.

قال الرجل العجوز: "ربِ، دعها تقفز. لدي خيط كافٍ للتعامل معها".

فكّر: لو استطعتُ أن أزيد الشدّ قليلاً فقط، سيؤلمها هذا وستقفز. الآن وقد انتشر النور، لتقفز حتى تملأ بالهواء جيوبها الممتدة على طول عمودها الفقري، فلن تستطيع الغوص عميقاً لتموت عندئذ.

حاول زيادة الشد، لكن الخيط كان متوتراً إلى حد نقطة الإنقطاع تماماً منذ أن علقت السمكة وأحس هو بالصلابة حين مال إلى الخلف ليسحب وعَرَف أنه لن يستطيع زيادة

الشد فيه. فكّر: يجب أن لا أهزّه على الإطلاق. كل هزّة توسّع القطع الذي تشقه الصنارة فيها وحين تقفز فعلاً فإنها قد تقذف بها. على أي حال، أحس بأنني أفضل حالاً مع وجود الشمس، ولأول مرة لن أنظر إليها.

علقت أعشاب صفراء على الخيط لكن الرجل العجوز عرف أن ذلك يشكّل ثقلاً إضافياً وسره هذا. كانت أعشاب الخليج الصفراء هي التي تصدر مثل ذلك الوميض الفوسفوري الكثير في الليل.

قال: "يا سمكة، أنا أحبك وأحترمك كثيراً جداً. لكنني سأقتلك قبل أن ينتهي هذا النهار".

فكّر: لنأمل هذا.

اتجه طائر صغير نحو الزورق من الشمال. كان طائر دخلة مغرد يطير على ارتفاع منخفض جداً فوق الماء. رأى الرجل العجوز أنه تعب جداً.

وصل الطائر إلى مؤخرة القارب بعد جهد واستراح هناك. ثم طار حول رأس الرجل العجوز واستراح على الخيط حيث يشعر بالراحة أكثر.

سأل الرجل العجوز الطائر: "كم عمرك؟ هل هذه رحلتك الأولى؟"

نظر الطائر إليه حين تكلم. كان تعباً جداً حتى إنه لم يفحص الخيط وتمايل عليه وقدماه الدقيقتان تمسكان به بقوة.

أخبره الرجل العجوز: "إنه ثابت. إنه ثابت جداً. يجب ألاّ تكون تعباً إلى هذه الدرجة بعد ليلةٍ بلا ريح. ما الذي جرى للطيور؟"

فكّر: الصقور التي تخرج إلى البحر لتقابلها. لكنه لم يقل شيئاً من هذا إلى الطائر الذي لا يفهمه بأي طريقة من الطرق والذي سيتعلم عن الصقور في وقت قريب تماماً.

قال: "استرح جيداً يا طائراً صغيراً. ثم تابع طريقك وانتهز فرصتك مثل أي رجل أو طائر أو سمكة".

تشجع على الكلام لأن ظهره تصلّب في الليل وقد آلمه هذا تماما الآن.

قال: "إبقَ في بيتي إذا أحببت يا طائر. أنا آسف لأنني لن أستطيع نشر الشراع وأصل بك إلى البر مع النسيم الخفيف الذي يرتفع. لكنني مع صديق".

في تلك اللحظة تماماً، مالت السمكة فجأة فجذبت الرجل العجوز إلى أسفل نحو المقدمة وكانت ستجره إلى خارج القارب لو لم يثبّت نفسه ويعطي بعض الخيط.

طار الطائر إلى أعلى حين ارتج الخيط ولم يكن حتى قد رآه الرجل العجوز وهو يذهب. تحسس الخيط بحرص بيده اليمنى ولاحظ أن يده تنزف.

قال بصوت عالٍ: "شيء آذاها إذن" وجذب الخيط إلى الخلف ليرى إن كان يمكنه أن يدير السمكة. لكن حين لمس نقطة الإنكسار، أمسك بثبات ومال إلى الخلف ليقاوم توتر الخيط.

قال: "أنتِ تحسين به الآن يا سمكة. كذلك أنا، الله يعلم".

نظر حوله بحثاً عن الطائر الآن لأنه كان سيحب صحبته. كان الطائر قد ذهب.

فكر الرجل: لم تبقَ طويلاً. لكن سيكون أصعب عليك

أن تطير إلى حيث تذهب حتى تصل إلى الشاطىء. كيف سمحتُ للسمكة أن تجرحني بتلك الجذبة السريعة الواحدة التي جذبتها؟ لابد أنني أصبحت غبياً جداً. أو ربما كنتُ أنظر إلى الطائر الصغير وأفكر فيه. سأركز انتباهي الآن على عملي ثم يجب أن آكل التونا حتى لا أصاب بخذلان القوة.

قال بصوت عالٍ: "ليتَ الولد هنا وليت لدي بعض الملح".

بعد أن نقل ثقل الخيط إلى كتفه الأيسر وركع بحذر، غسل يده في المحيط وأبقاها هناك مغمورة لأكثر من دقيقة مراقباً الدم يقطر مبتعداً وحركة الماء المطردة على يده بينما القارب يتحرك.

قال: "لقد أبطأتْ كثيراً".

ودّ الرجل العجوز أن يبقي يده في ماء الملح مدةً أطول لكنه كان خائفاً من دفعة فجائية أخرى تقوم بها السمكة فنهض واقفاً واستجمع قواه ورفع يده أمام الشمس. كان حرق الخيط فقط هو الذي جرح لحمه. لكن الجرح كان في الجزء العامل من يده. عرف أنه سيحتاج إلى يده قبل أن ينتهي الصيد ولم يحب أن يجرح قبل أن يبدأ الصيد.

قال، حين جفت يده: "الآن، يجب أن آكل التونا الصغيرة. يمكنني الوصول إليها بالمحجن وآكلها هنا وأنا مستريح".

ركع ووجد بالمحجن التونا تحت مؤخرة القارب وسحبها نحوه وهو يبقيها بعيدة عن الخيوط الملفوفة. فيما هو يمسك بالخيط بكتفه الأيسر ثانية ويلقه على يده

وذراعه الأيسر، انتزع التونا من خُطّاف المحجن وأعاد المحجن إلى مكانه. وضع ركبة واحدة على السمكة وقطع طولياً شرائح من لحم أحمر داكن من قفا الرأس إلى الذيل. كانت شرائح إسفينية الشكل وقطعها من جوار العمود الفقري هابطاً حتى حافة البطن. حين قطع ست شرائح فردها على خشب المقدمة، ومسح سكينه على سرواله، ورفع ذبيحة سمكة بونيتو من ذيلها وأسقطها من فوق ظهر القارب.

قال: "لا أظن أنني أستطيع أكل سمكة كاملة"، دفع سكينه في إحدى الشرائح. أحس بجذب الخيط المطرد وتشنجت يده اليسرى. ارتفعت إلى أعلى مشدودة على الحبل الثقيل ونظر إليها باشمئزاز.

قال: "أي نوع من الأيدي هذه. تشنجي إنْ أنتِ أردتِ. حولي نفسك إلى مخلب. لن يفيدك هذا".

فكر ونظر إلى أسفل داخل الماء المعتم إلى ميل الخيط: كُلها الآن وستقوي اليد. إنها ليست غلطة اليد وقد بقيتَ أنتَ ساعات كثيرة مع السمكة. لكنك تستطيع أن تبقى معها إلى الأبد. كُل سمكة الـ بونيتو الآن.

التقط قطعة ووضعها في فمه ومضغها ببطء. لم تكن غير لذيذة.

فكر: امضغها جيداً، وامتص كل العصير. لن تكون سيئة لو أكلتها مع قليل من ليم أو مع ليمون أو مع ملح.

سأل اليد المتشنجة التي كانت متصلبة كتيبس الموت: "كيف حالك يا يد؟ سآكل المزيد من أجلك".

أكل الجزء الآخر من القطعة التي كان قد قطعها إلى

جزئين. مضغها بحرص وبعدئذ بصق الجلد.

- "كيف تسير الأمور يا يد؟ أم أن الوقت أبكر من أن نعرف؟"

أخذ قطعة كاملة أخرى ومضغها.

فكر: "إنها سمكة قوية مليئة بالدم. من حسن الحظ أنني حصلت عليها بدلاً من دلفين. الدلفين حلو أكثر من اللازم. هذه لا تكاد تكون حلوة إطلاقاً ولا تزال القوة كلها فيها".

فكر: لا يوجد أي معنى لأن تكون أي شيء سوى أن تكون عملياً. يا ليت لدي بعض الملح. لا أعرف إن كانت الشمس ستفسد أو تجفف ما يبقى، لذلك يحسن أن آكلها كلها مع أنني لست جائعاً. السمكة هادئة وثابتة. سآكلها كلها وحينذاك سأصبح مستعداً.

قال: "أصبري يا يد. إنني أفعل هذا من أجلك".

فكر: ليتني أطعم السمكة. إنها أختي. لكن يجب أن أقتلها وأحافظ على قوتي لأفعل هذا. ببطء وراحة ضمير أكل كل شرائح السمكة إسفينية الشكل.

استقام واقفاً، ماسحاً يده على سرواله.

قال: "الآن. يمكنكِ أن ترخي الحبل يا يد، وسأتعامل مع السمكة بذراعي اليمنى منفردة حتى تتوقفي عن ذلك الهراء". وضع قدمه اليسرى على الخيط الثقيل الذي أمسكت به اليد اليسرى ومال إلى الخلف عكس الجذب على ظهره.

قال: "ليساعدني الله على التخلص من هذا التشنج. لأنني لا أعرف ما ستفعله السمكة".

فكّر: لكنها تبدو هادئة وتتبع خطتها. فكّر: لكن، ما هي خطتها. وما هي خطتي؟ خطتي التي يجب أن أرتجلها ضد خطتها بسبب كبر حجمها. إذا قفزت فسأقتلها. لكنها تبقى في الأسفل إلى الأبد. إذن سأبقى معها في الأسفل إلى الأبد.

دلّك يده المتشنجة على سرواله وحاول أن يليّن أصابعها. لكنها لم تنفتح. فكّر: ربما ستنفتح مع الشمس. ربما ستنفتح حين تهضم التونا النيئة القوية. لو أن عليّ أن أستعملها، سأفتحها، كلّف هذا مهما يكلّف. لكنني لا أريد فتحها بالقوة. لتنفتح بنفسها وتستعيد عافيتها تلقائياً. بعد أن أسأت استخدامها كثيراً في الليل حين كان من الضروري حلّ وربط الخيوط المختلفة.

نظر إلى البحر فعرف مدى وحدته الآن. لكنه رأى المواشير في الماء العميق الداكن والخيط يمتد أمامه والتموجات الغريبة للبحر الهادىء. كانت السحب تتجمع الآن لتطلق الريح التجارية ونظر إلى الأمام ورأى سرباً من البط البري يطبع صورته في السماء فوق الماء، ثم تنطمس الصورة ثم تنطبع من جديد وعرف أن لا أحد وحيد أبداً في البحر.

فكّر كيف يخاف بعض الرجال أن يختفوا عن أنظار اليابسة وهم في قارب صغير وعرف أنهم كانوا على حق في هذا في شهور الطقس السيىء فجأة. لكنهم الآن، في شهور الأعاصير وحين لا تهب أعاصير في هذه الشهور، يكون طقس هذه الشهور أفضل الشهور في السنة كلها.

فكّر: إذا كان سيهب إعصار فأنت ترى دائماً علاماته في

السماء قبل أيام من هبوبه، إذا كنتَ في البحر. فكّر: إنهم لا يرونه من الشاطىء لأنهم لا يعرفون إلى ماذا ينظرون. لابد أن تشكل اليابسة فرقاً أيضاً، في شكل السحب. لكن لن تهب أعاصير الآن.

نظر إلى السماء ورأى سحب النغّاض الأبيض تتجمع مثل كتل ودودة من مثلجات/ آيس كريم وعالياً في الأعلى تجمع ريش رقيق من سحب الطخاف على سماء سبتمبر العالية.

قال: "brisa/ نسيم خفيف. طقس أفضل لي مما هو لكِ يا سمكة".

لا تزال يده اليسرى متشنجة، لكنه كان يحلّها ببطء.

فكّر: أنا أكره التشنج. إنه خيانة الجسد للإنسان. من المذلّ أمام الآخرين أن تصاب بإسهال من تسمم لحمة عفنة أو التقيؤ منها. لكن التشنج، فكّر به كـ calambre، فهو يذلّ الإنسان خصوصاً حين يكون الإنسان وحيداً.

فكّر: لو كان الولد هنا لدلكها لي ولينها من الساعد حتى الأسفل. لكنها ستخفّ.

ثم، وبيده اليمنى، أحسّ بالفرق في جذب الخيط قبل أن يرى الميل بتغير في الماء. ثم، فيما هو يميل على الخيط ويضرب بيده اليسرى بقوة وسرعة على فخذه، رأى الخيط يميل ببطء إلى أعلى.

قال: "إنها تصعد. هيا يا يد. أرجوكِ هيا".

ارتفع الخيط ببطء واطراد ثم انتفخ سطح المحيط أمام القارب وخرجت السمكة. استغرقت وقتاً لانهائياً وهي تخرج والماء يقطر من جنبيها. كانت متلألئة في الشمس

وكان رأسها وظهرها أرجوانيين داكنين وفي الشمس ظهرت الخطوط على جنبيها عريضة وخزامية فاتحة. كان سيفها بطول مضرب بيسبول ومستدقاً مثل سيف مبارزة ورفعت كامل طولها من الماء ثم عادت تدخل إلى الماء بمرونة، كغواص، ورأى الرجل العجوز نصل منجل ذيلها الضخم يختفي تحت الماء وبدأ الخيط يعدو مبتعداً.

قال الرجل العجوز: "إنها أطول من الزورق بقدمين". راح الخيط يكر بسرعة، لكن باطراد، ولم تكن السمكة فزعة. كان الرجل العجوز يحاول بكلتا يديه أن يبقي الخيط ضمن حد نقطة الانقطاع تماماً. كان يعرف أنه إذا لم يستطع إبطاء حركة السمكة بضغط مطرد فإنها قد تحل كل الخيط وتقطعه.

فكر: إنها سمكة عظيمة ويجب أن أقنعها. يجب ألا أدعها تعرف قوتها إطلاقاً ولا ما يمكنها فعله إذا هي جرت بأقصى قوة وسرعة. لو كنت في مكانها لقمت بكل شيء الآن واندفعت حتى ينقطع شيء. لكن، والحمد لله على هذا، ليس السمك ذكياً قدر ذكائنا نحن الذين نقتله؛ مع أنه أنبل وأقدر.

رأى الرجل العجوز الكثير من السمك الكبير. رأى الكثير مما يزن أكثر من ألف رطل وقد اصطاد سمكتين من هذا الحجم في حياته، لكنه لم يصطدهما أبداً وهو وحيد. هو الآن وحيد، وخارج مجال رؤية اليابسة، كان قد ثبت إلى أكبر سمكة رآها في حياته وأكبر من أي سمكة سمع بها، وكانت يده اليسرى لا تزال مشدودة مثل مخالب نسر منقبضة.

فكر: لكن التشنج سيزول. من المؤكد أنه سيزول حتى تساعد يدي اليمنى. هناك ثلاثة أشياء هي أخوات: السمكة ويداي الاثنتان. يجب أن يزول عنها التشنج. إنها لا تستحق أن تصاب بالتشنج. أبطأت السمكة ثانية وسارت بخطاها العادية.

فكر الرجل العجوز: ترى لماذا قفزت. قفزت كأنها تريد أن تريني كم هي ضخمة. فكر: أنا أعرف هذا الآن على أي حال. ليتني أريها أي نوع من الرجال أنا. لكنها سترى حينذاك يدي المتشنجة. لتفكر أنني أرجل مما أنا وسأكون كذلك. فكر: ليتني كنت السمكة مع كل ما لديها مقابل إرادتي وذكائي فقط.

استقر مستريحاً على الخشب وتحمل ألمه وهو يهاجمه وسبحت السمكة باطراد واندفع القارب ببطء عبر الماء المعتم. جرت حركة طفيفة في البحر والريح تهب من الشرق وعند الظهر زال تشنج يد الرجل العجوز اليسرى.

قال: "أخبار سيئة لك يا سمكة" ونقل الخيط فوق الكيس الذي يغطي كتفيه.

كان مستريحاً لكنه يعاني، مع أنه لم يسلم بوجود المعاناة إطلاقاً.

قال: "لستُ متديناً. لكنني سأتلو عشر مرات: أبانا وعشر مرات السلام عليكِ يا مريم حتى اصطاد هذه السمكة، وأعد أن أقوم بالحج إلى مزار عذراء بلدة كوبر إذا اصطدتها. ذلك نذر علي".

بدأ يتلو صلواته بآلية. أحياناً يكون تعباً إلى درجة أنه لا يستطيع تذكر الصلاة وبعدئذ يرددها بسرعة فتأتيه آلياً.

فكّر: إن السلام عليكِ يا مريم أسهل من "أبانا".

- "السلام عليكِ يا مريم يا ممتلئة نعمة، الرب معك، مباركة أنتِ بين النساء ومباركة هي ثمرة بطنك، يسوع المسيح. أيتها القديسة مريم، يا أم الله، صلي من أجلنا نحن الخاطئين الآن وكل أوان وإلى أبد الداهرين، آمين".

ثم أضاف: "أيتها العذراء المباركة، صلي من أجل موت هذه السمكة. رغم أنها مدهشة".

وهو يتلو صلواته، وقد أحسّ بأنه في حال أفضل بكثير، لكنه يعاني بالضبط بنفس القدر وربما أكثر قليلاً، اتكأ على خشب المقدمة وبدأ يحرّك أصابع يده اليسرى آلياً.

كانت الشمس حارة الآن مع أن النسيم ظلّ يهب بلطف.

قال: "يحسن أن أعيد وضع طعم لذلك الخيط القصير المتدلي من فوق مؤخرة القارب. إذا قررت السمكة البقاء ليلة أخرى سأحتاج إلى الأكل ثانية والماء منخفض في القنينة. لا أظن أنني أستطيع الحصول على أي شيء هنا سوى دلفين. لكن، إذا ما أكلته طازجاً تماماً فلن يكون طعمه سيئاً. ليت سمكة طائرة تحط على ظهر القارب الليلة. لكن ليس لدي نور لأجتذبها. إن سمكة طائرة ممتازة جداً للأكل نيئة ولن أضطر لتقطيعها. يجب أن أوفر كل قوتي الآن. يا للمسيح، لم أكن أعلم أنها كبيرة إلى هذا الحد".

قال: "لكنني سأقتلها. بكل عظمتها ومجدها".

فكّر: مع أن هذا ظلم. لكنني سأريها ما يستطيع إنسان

فعله وما يستطيع إنسان تحمله.

قال: "أخبرت الولد أنني رجل عجوز غريب. والآن حان الوقت الذي يجب أن أبرهن فيه على هذا".

لم تعنِ شيئاً الآف المرات التي برهن فيها على هذا. ها هو الآن يبرهن على هذا مرة ثانية. كل مرة هي مرة جديدة ولم يفكر هو أبداً بالماضي حين يقوم بعمل.

فكّر: ليتها تنام فأتمكن أنا من النوم وأحلم بالأسود. لماذا الأسود هي الشيء الرئيسي الذي يبقى؟ قال لنفسه: لا تفكر يا عجوز. استرح الآن على الخشب ولا تفكر بأي شيء. إنها تجذب. اجذبي بأقل ما تستطيعين.

اقترب الوقت من فترة بعد الظهر وظلّ القارب يتحرك ببطء واطراد. لكن حدث الآن جذب إضافي من النسيم الشرقي وأبحر الرجل العجوز مع البحر الصغير بلطف وأحس بألم الحبل على ظهره خفيفاً ولطيفاً.

ذات مرة بعد الظهر، بدأ الخيط يرتفع ثانية. لكن السمكة استمرت فقط بالسباحة على مستوى أعلى قليلاً. وقعت الشمس على ذراع وكتف الرجل العجوز الأيسرين وعلى ظهره. فعرف أن السمكة دارت نحو شرق الشمال.

الآن، وقد رآها مرة واحدة، يمكنه تصورها تسبح في الماء بزعانفها الصدرية الأرجوانية وقد امتدت عريضة كجناحين والذيل الهائل المنتصب يشق طريقه مندفعاً في الظلام. فكّر الرجل العجوز: ترى ما مدى ما تراه وهي على ذلك العمق. عينها هائلة وحصان، بعين أصغر كثيراً، يستطيع أن يرى في الظلام. في وقت من الأوقات كنت أستطيع أن أرى جيداً في الظلام. ليس في الظلام الكامل.

لكن كما ترى قطه تقريباً.

أزالت الشمس وتحريكه المستمر لأصابعه التشنجَ من يده اليسرى بالكامل الآن وبدأ ينقل أغلب الجهد إليها وهز عضلات ظهره لينقل ألم الحبل قليلاً.

قال بصوت عالٍ: "إذا لم تتعبي يا سمكة، فلابد أن تكوني غريبة جداً".

أحس بالتعب الشديد الآن وعرف أن الليل سيحلّ قريباً وحاول أن يفكر بأشياء أخرى. فكّر بمباريات نوادي البيسبول الكبرى. كانت بالنسبة إليه جران ليجاس وكان يعرف بأن يانكيي نيويورك يلعبون مع تايجرز أف ديترويت.

فكّر: هذا هو اليوم الثاني الذي مرّ دون أن أعرف نتيجة المباريات. لكن، يجب أن يكون لدي ثقة بالنفس ويجب أن أكون جديراً بـ دي ماجيو العظيم الذي يفعل كل الأشياء بإتقان حتى مع ألم مهماز عظمة في عقب قدمه. سأل نفسه: ما هو Un espuela de bueso / مهماز عظمة؟ نخز يصيب عظمة. لم نصب نحن به. هل هو مؤلم كمهماز ديك مقاتل في عقبه؟ لا أظن أنني أقدر أن أتحمل ذلك أو لن أتحمل خسارة عيني أو كلا عينيّ وأواصل القتال كما تفعل الديكة المقاتلة؟ الإنسان ليس عظيماً أمام الطيور العظيمة والوحوش. لكن، أود أن أكون ذلك الوحش الموجود في الأسفل هناك في ظلام البحر.

قال بصوت عالٍ: "إلاّ إذا جاء سَمَكُ القرش. إذا جاءت أسماك القرش، ليرحمه الله ويرحمني".

فكّر: هل تعتقد أن دي ماجيو العظيم سيبقى مع سمكة قَدْر المدة التي سأبقاها مع هذه السمكة؟ أنا متأكد من أنه سيبقى هذه المدة ولمدة أطول لأنه صغير السن وقوي. كما أن أباه كان صياداً أيضاً. لكن، هل ستؤلمه مهماز العظمة كثيراً جداً؟

قال بصوت عال: "لا أعرف. لم أصب بمهماز عظمة أبداً".

فيما كانت الشمس تغرب، تذكّر، ليعطي نفسه المزيد من الثقة بالنفس، الوقتَ الذي لعب فيه في حانة في منطقة كازابلانكا من هافانا لعبة كسر اليد مع الزنجي العظيم من بلدة سينفويجوس الذي كان أقوى الرجال في أحواض السفن. أمضيا يوماً واحداً وليلة واحدة ومرفقاهما على خط طباشير على الطاولة وساعداهما منتصبان ويداهما قابضتان بإحكام. كان كل منهما يحاول إجبار يد الآخر على السقوط على الطاولة. جرت مراهنات كثيرة ودخل الكثير من الناس الغرفة وخرجوا منها تحت نور مصابيح كيروسين ونظر إلى ذراع ويد الزنجي وإلى وجهه. غيروا المحكّمين كل أربع ساعات بعد الساعات الثماني الأولى حتى يتمكن المحكّمون من النوم. تفجر الدم من تحت أظافر أصابع يده ويد الزنجي ونظر كل منهما في عينيّ الآخر وإلى يديه وساعديه ودخل المراهنون الغرفة وخرجوا منها وجلسوا على كراسٍ عالية ملاصقة للجدار وراقبوا. كانت الجدران مطلية باللون الأزرق الفاتح ومصنوعة من الخشب وألقت المصابيح ظلالها عليها. كان ظل الزنجي هائل الحجم وتحرك على الجدار والنسيم يحرك المصابيح.

تأرجح فرق مبالغ المراهنة عليهما طيلة الليل وغذّوا الزنجي بشراب روم وأشعلوا له سجائر. ثم بذل الزنجي، بعد الروم، جهداً هائلاً سيطر فيه على الرجل العجوز، الذي لم يكن عجوزاً حينذاك بل سنتياجو البطل El Campeon، بحوالي ثلاث بوصات عن التوازن. لكن الرجل العجوز رفع يده إلى أعلى ثانية إلى نقطة التوازن تماماً. كان متأكداً من أنه سيهزم الزنجي الذي كان رجلاً مهذباً ورياضياً عظيماً. وعند طلوع نور النهار حين كان المراهنون يطالبون بانسحاب بلا غالب أو مغلوب والمحكّم يهز رأسه، أطلق جهده من عقاله وأجبر يد الزنجي أن تهبط إلى أسفل وأسفل حتى استقرت على الخشب. كانت المباراة قد بدأت صباح يوم أحد وانتهت صباح يوم اثنين. طلب كثير من المراهنين بالانسحاب لأنهم كان يجب أن يمضوا إلى العمل على الأرصفة لتحميل أكياس السكر أو العمل في شركة هافانا للفحم. لولا ذلك لأراد الكل استمرار المباراة حتى النهاية. لكنه كان قد أنهاها على أي حال قبل أن يذهب أي واحد إلى العمل.

بعد ذلك بمدة طويلة، دعاه الكل بالبطل وجرت مباراة عودة في الربيع. لكن لم يراهن عليها بكثير من النقود وفاز بالمباراة بسهولة تامة لأنه كان قد حطم ثقة زنجي سينفويجوس بنفسه في المباراة الأولى. بعد ذلك أجرى مباريات قليلة ثم لم يقم بالمزيد من المباريات. فقد رأى أنه يمكنه هزيمة أي شخص إذا صمم على ذلك لكنه رأى أن ذلك كان سيئاً على يده اليمنى في الصيد. حاول بضع مباريات تدريبية بيده اليسرى. لكن يده اليسرى ظلت

دائماً خائنة ولم تفعل ما كان يدعوها إلى فعله، فلم يثق بها.

فكّر: ستحمّصها الشمس جيداً الآن. يجب ألاّ تتشنج ثانية إلاّ إذا أصبح الجو بارداً جداً ليلاً. ترى ما الذي ستجلبه هذه الليلة.

مرت طائرة فوق رأسه في طريقها إلى ميامي وراقب ظلها يفزع أسراب سمك طائر فيندفع محلقاً في الهواء.

قال: "مع هذا العدد الكبير من الأسماك الطائرة لا بد أن يوجد دلفين"، ومال إلى الخلف جاذباً الخيط ليرى إن كان يمكنه سحب مقدار منه. لكنه لم يستطع سحب أي طول منه وظلّ في حالة توتر صلب واهتزاز يسبق القطع. تحرك القارب إلى الأمام ببطء وراقب الطائرة حتى لم يعد يراها.

فكّر: لابد أن من الغريب ركوب طائرة. تُرى كيف يبدو البحر من ذلك العلو. لابد أنهم قادرون على رؤية السمك جيداً إذا لم يطيروا على علو شاهق. أود أن أطير ببطء بالغ على علو مائتي قامة وأرى السمك من أعلى. في قوارب صيد السلاحف، كنت أقف على منصة أعلى صاري المراقبة وحتى على ذلك العلو كنت أرى الكثير. كان الدلفين يبدو أشد خضرة من هناك وكان يمكنك أن ترى خطوطه وبقعه الأرجوانية وترى كل السرب وهو يسبح. لماذا تكون ظهور كل أسماك التيار المعتم العميق سريعة الحركة أرجوانية وعليها خطوط أو بقع أرجوانية عادة؟ يبدو الدلفين أخضر طبعاً لأنه ذهبي حقاً. لكنه حين يأتي ليتغذى، وهو جائع حقاً، تظهر خطوط

أرجوانية على جنبيه كما تظهر على سمكة مارلين. هل يمكن أن يكون الغضب الذي يسيطر عليه أو السرعة البالغة التي يتحرك بها هما ما تظهرا هذه الخطوط؟

قبل حلول الظلام تماماً، وفيما هو يمر بجزيرة كبيرة من عشب سارجاس يرتفع وينخفض ويدوم في البحر الخفيف كأن المحيط يمارس الحب مع شيء تحت بطانية صفراء، التقط دلفين خيطه الصغير. رآه أولاً حين قفز في الهواء، ذهب حقيقي في أواخر نور الشمس وهو ينحني ويرف بعنف في الهواء. قفز مرة ومرة ببهلوانيات خوفه وشق الرجل العجوز طريقه راجعاً إلى مؤخرة الزورق، وبعد أن جثم وأمسك بالخيط الكبير بيده اليمنى وذراعه الأيمن، سحب الدلفين إلى الداخل بيده اليسرى، دائساً على ما استرجعه من خيطٍ كل مرة بقدمه اليسرى الحافية. حين وصلت السمكة إلى المؤخرة، متخبطةً ومندفعةً من جانب إلى آخر بيأس، مال الرجل العجوز على المؤخرة ورفع السمكة الذهبية اللامعة بنقطها الأرجوانية إلى تلك المؤخرة. كان فكاها يتحركان بتشنج في عضات سريعة على الصنارة وخبطت قاع الزورق بجسدها المنبسط الطويل وذيلها ورأسها حتى أهوى الرجل العجوز بهراوة على الرأس الذهبي اللامع فارتعدت وسكنت.

انتزع الرجل العجوز الصنارة من السمكة، وأعاد وضع طعم سردين آخر في الخيط وقذف به من فوق القارب. ثم اتخذ طريقه ببطء عائداً إلى مقدمة القارب. غسل يده اليسرى ومسحها على سرواله. ثم نقل الخيط الثقيل من يده اليمنى إلى يده اليسرى وغسل يده اليمنى في البحر

وهو يراقب الشمس تنزل في المحيط وميل الحبل الكبير.

قال: "لم تتغير إطلاقاً". لكنه، وهو يراقب حركة الماء على يده، لاحظ أنها أبطأ على نحو ملحوظ.

قال: "سأثبت المجدافين معاً على مؤخرة القارب وسيبطىء هذا من حركة السمكة في الليل. إنها قديرة في الليل وكذلك أنا".

فكر: يحسن انتزاع أحشاء الدلفين بعد قليل حتى يبقى الدم في اللحم. يمكنني فعل هذا بعد وقت قصير وتثبيت المجدافين لإعاقة حركة الزورق في نفس الوقت. يحسن أن أدع السمكة هادئة الآن ولا أزعجها أكثر من اللازم عند غروب الشمس. إن وقت غروب الشمس وقت صعب لكل السمك.

ترك يده تجف في الهواء ثم قبض على الخيط بها وأراح نفسه قدر ما أمكنه ذلك وسمح لنفسه أن يجذب إلى الأمام على الخشب حتى يتحمل القارب الشد قدر أو أكثر مما يتحمله هو.

فكر: أنا أتعلم كيف أفعل هذا. هذا الجزء منه على أي حال. ثم تذكر أيضاً أنها لم تأكل شيئاً منذ أن علقت وأكلت الطعم وهي كبيرة وتحتاج إلى الكثير من الطعام. أكلت كامل سمكة بنيتو. غداً، سآكل الدلفين. سماه do-rado/الذهبي. لعلي آكل جزءاً منه حين أنظفه. سيكون أقسى للأكل من سمك بنيتو. لكن، لا شيء سهل إذن.

سأل بصوت عالٍ: "كيف حالك يا سمكة؟ إنني بحال جيدة ويدي اليسرى أفضل ولدي طعام لليلة ونهار. إسحبي القارب يا سمكة".

لم تكن حاله جيدة حقاً فالألم من الحبل على ظهره كان قد تجاوز الألم تقريباً وتحوّل إلى تبلّد أساء الثقة به. فكّر: لكنني عانيت من أشياء أسوأ من ذلك. يدي جريحة قليلاً فقط وزال التشنج من الأخرى. رجلاي على ما يرام. الآن أيضاً، فزت عليها في موضوع القوت.

حلّ الظلام الآن كما يحلّ الظلام بسرعة بعد غياب الشمس في سبتمبر. تمدد الرجل العجوز على خشب المقدمة البالي واستراح قدر ما وسعه ذلك. ظهرت النجوم الأولى. لم يكن يعرف اسم نجم رِجل الجوزاء اليسرى لكنه رآه وعرف أن كل النجوم سرعانَ ما ستخرج ويلتقي بكل أصدقائه البعيدين.

قال بصوت عال: "السمكة صديقتي أيضاً. لم أرَ أو أسمع أبداً بسمكة كهذه. لكنني يجب أن أقتلها. أنا مسرور لأنه ليس علينا أن نحاول قتل النجوم".

فكّر: تخيل لو كان على الإنسان أن يحاول قتل القمر كل يوم. القمر يهرب. لكن تخيّل لو كان على الإنسان أن يحاول قتل الشمس؟ فكّر: لقد ولدنا محظوظين.

ثم أحس بالأسف نحو السمكة العظيمة التي لم يكن لديها شيء تأكله ولم يضعف تصميمه على قتلها وهو يحس بالأسف عليها. فكّر: كم من الناس ستطعم. لكن، هل هم جديرون بأن يأكلوها؟ لا. طبعاً لا. لا يوجد أحد جدير بأكلها كما يبدو من طريقة سلوكها وكرامتها العظيمة.

فكّر: أنا لا أفهم هذه الأمور. لكن من الجيد أننا لسنا مضطرين إلى أن نحاول قتل الشمس أو القمر أو النجوم.

يكفي أن نعيش على البحر ونقتل إخواننا الحقيقيين.

فكر: الآن، يجب أن أفكر في الجر. له مخاطره وحسناته. قد أفقد الكثير جداً من الخيط إلى حد أن أفقدها، إذا بذلت هي جهدها وكانت الإعاقة التي يقوم بها المجذافان في مكانه وفقد القارب كل خفته. إن خفته تطيل مدة معاناتنا نحن الاثنين لكنها تمثل سلامتي، فالسمكة تتمتع بسرعة عظيمة لم تستخدمها إلى حد الآن. مهما يحدث، يجب أن أخرج أحشاء الدلفين حتى لا يفسد وآكل شيئاً منه لأصبح قوياً.

سأستريح الآن ساعة أخرى وأتأكد من أن السمكة مثبتة بقوة ومستقرة قبل أن أتحرك عائداً إلى مؤخرة القارب لأقوم بالعمل واتخذ القرار. في أثناء هذا، أستطيع أن أرى كيفية تصرفها حتى إذا أظهرت هي أي تغييرات. المجذافان وسيلة بارعة؛ لكن حان الوقت للعمل من أجل السلامة! إنها لا تزال سمكة ضخمة جداً وقوية وأرى أن الصنارة في زاوية فمها وأنها تبقي فمها محكم الإطباق. عقوبة الصنارة لا شيء. عقوبة الجوع، وكونها ضد شيء لا تفهمه، هو كل شيء. استرح الآن يا عجوز، ودعها تعمل حتى تحلّ نوبة عملك التالية.

استراح لمدة أعتقد بأنها ساعتان. لم يطلع القمر الآن إلا في ساعة متأخرة ولم تكن لديه وسيلة لمعرفة الوقت. كما لم يكن مستريحاً حقاً إلا نسبياً. كان لا يزال يتحمل جذب السمكة فوق كتفيه لكنه وضع يده اليسرى على شفير حافة المقدمة وأتمن الزورقَ نفسه على مقاومة السمكة أكثر فأكثر.

فكّر: كم سيكون الوضع بسيطاً لو استطعتُ تثبيت الخيط. لكن، بجذبةٍ واحدة طفيفة تستطيع قَطْعه. يجب أن أجعل من جسمي وسادةً لجذب الخيط وأظل طيلة الوقت على استعداد بأن أرخي الخيط بكلتا يديّ.

قال بصوت عالٍ: "لكنك لم تنم بعد يا عجوز. انقضى نصف نهار وليلة وها الآن يمر نهار آخر وأنت لم تنم. يجب أن تستنبط طريقة لتنام قليلاً إذا ظلت هادئة ومستقرة. إذا لم تَنَم أنتَ فقد تصبح غير صافي الرأس.

فكّر: إنني صافي الرأس تماماً. صافٍ جداً. إنني صافٍ صفاء النجوم التي هي إخواني. مع ذلك يجب أن أنام. إنها تنام والقمر والشمس ينامان وحتى المحيط ينام أحياناً في أيامٍ معينة حين لا يوجد تيار وحين يكون هادئاً منبسطاً.

فكر: لكن تذكر أن تنام. اجبر نفسك على هذا واستنبط طريقة بسيطة ومؤكدة فيما يتعلق بالخيوط. الآن، إذهب إلى الخلف وأعد الدلفين. من الخطير جداً وضع المجذافين كعائق إذا كان يجب أن تنام.

أخبر نفسه: يمكنني الاستمرار بلا نوم. لكنه سيكون وضعاً خطيراً جداً.

بدأ يشق طريقه عائداً إلى مؤخرة القارب على يديه وركبتيه، حريصاً على ألا يرتج هذا السمكة. فكر: قد تكون هي نفسها نصف نائمة. لكنني لا أريدها أن تستريح. يجب أن تجذب حتى تموت.

بعد أن عاد إلى مؤخرة القارب استدار حتى تتحمل يده اليسرى شد الخيط المرتكز على كتفيه واستل سكينه من

غمدها بيده اليمنى. كانت النجوم متألقة الآن ورأى الدلفين بوضوح ودفع نصل سكينه في رأسه وسحبه من تحت مؤخرة القارب. وضع إحدى قدميه على الدلفين وشقه بسرعة من شرجه حتى أعلى فكه الأسفل. ثم وضع سكينه وانتزع أحشاءه بيده اليمنى، مفرغاً ما فيه تماماً مخرجاً خياشيمه. أحس بالكرشة ثقيلة وزلقة بين يديه وشقها. وجد في داخلها سمكتين طائرتين. كانتا طازجتين وصلبتين ووضعهما جنباً إلى جنب وأسقط الأحشاء والخياشيم من فوق مؤخرة القارب. غاصتْ تاركةً أثر توهج فوسفوري في الماء. كان الدلفين بارداً وجذاميّ اللون الآن تحت أشعة النجوم وسلَخ الرجل العجوز أحد جنبيه فيما هو يضع قدمه اليمنى على رأسه. ثم قلبه وسلخ الجنب الآخر وقطع فاصلاً كل جنب عن الآخر من الرأس نزولاً حتى الذيل.

زلق الهيكل العظمي من فوق سطح القارب ونظر ليرى إن كانت توجد أي دوامة في الماء. لكن كانت توجد فقط الحركة الخفيفة لهبوطه البطيء. ثم استدار ووضع السمكتين الطائرتين داخل شريحتي السمكة المجروحتين معيداً سكينه إلى غمدها، وسار عائداً ببطء نحو مقدمة القارب. كان ظهره منحنياً من ثقل الخيط عليه وحمل السمكة في يده اليمنى.

بعد أن عاد إلى المقدمة، وضع شريحتيّ السمكة على الخشب المكشوف والسمكتين الطائرتين إلى جانبيهما. بعد ذلك ركز الخيط على كتفيه في مكان جديد وأمسك به بيده اليسرى وهو يتكىء على شفير القارب. ثم مال من فوق

الجانب وغسل السمكة الطائرة في الماء، ملاحظاً سرعة الماء على يده. كانت يده متوهجة فوسفورياً من سلخ السمك وراقب تدفق الماء عليها. كان التدفق أقل قوة وحين دلّك جانب يده على ألواح القارب، طفت جزيئات فوسفورية بعيداً عنه وانجرفت ببطء نحو مؤخرة القارب.

قال الرجل العجوز: "إنها تحس بالتعب أو هي تستريح. لأنتهي من أكل هذا الدلفين وأستريح قليلاً وأنام قليلاً".

تحت النجوم والليل يزداد برودة طيلة الوقت، أكل نصف شريحة واحدة من الدلفين وإحدى السمكتين الطائرتين منتزعة الأحشاء ومقطوعة الرأس.

قال: "يا له من سمك ممتاز الدلفين حين يؤكل مطبوخاً. ويا له من سمك مقرف وهو نيء. لن أخرج في قارب أبداً مرة أخرى دون ملح وليمون حامض".

فكر: لو كان عندي دماغ لكنت رششت ماءً على مقدمة القارب طيلة اليوم، فيجف ويكون ملحاً. لكنني لم أكن اصطدت الدلفين حينذاك حتى حل وقت الغروب تقريباً. لكن هذا كان نقصاً بالاستعداد. لكنني مضغته جيداً تماماً ولا أحس بالغثيان.

كانت السماء تتلبد بالغيوم في اتجاه الشرق واختفى نجم بعد آخر من النجوم التي كان يعرفها. بدا الآن كما لو كان يتحرك داخلاً في وادٍ عظيم من غيوم وهدأت الريح.

قال: "سيحل طقس سيء خلال ثلاثة أو أربعة أيام. لكن ليس الليلة ولا غداً. استعد الآن لتنام قليلاً يا عجوز، بينما السمكة هادئة مستقرة".

أمسك بالخيط بإحكام في يده اليمنى ثم دفع فخذه على يده اليمنى وهو يلقي بكل ثقله على خشب المقدمة. ثم أمرّ الخيط إلى أسفل قليلاً على كتفيه وثبت يده اليسرى عليه.

فكر: تستطيع يدي اليمنى أن تمسك به طالما هو مثبت. إذا تراخت أثناء النوم فستوقظني يدي اليسرى والخيط ينفلت. إنه صعب على اليد اليمنى. لكنها معتادة على العقوبة. حتى إذا نمت عشرين دقيقة أو نصف ساعة فهذا جيد. تمدد إلى الأمام متشنجاً على الخيط بكل جسمه، ملقياً بكل ثقله على يده اليمنى، ونام.

لم يحلم بالأسود، لكنه حلم بدل هذا، بسرب من خنازير البحر يمتد ثمانية أو عشرة أميال وكان هذا في موسم تزاوجها وكانت تقفز عالياً في الهواء وتعود إلى نفس الحفرة التي أحدثتها في الماء حين تقفز.

ثم حلم بأنه كان في القرية على سريره وهبت ريح شمالية فأحس ببرد شديد وخدرت ذراعه اليمنى لأن رأسه استراح عليها بدلاً من مخدة.

بعد ذلك بدأ يحلم بالشاطىء الأصفر الطويل ورأى أول الأسود يهبط إليه في العتمة المبكرة ثم وصلت الأسود الأخرى وأراح ذقنه على خشب المقدمة حيث كانت السفينة تستقر راسية ونسيم المساء البحري يهب وانتظر ليرى إن كان سيظهر المزيد من الأسود وكان سعيداً.

كان القمر قد طلع منذ مدة طويلة لكنه ظل نائماً وظلت السمكة تجذب باطراد وتحرك القارب داخل نفق غيوم.

استيقظ برجة قبضته اليمنى وهي ترتفع لتحط على

وجهه والخيط يحرق يده اليمنى وهو يفلت خارجاً منها. لم يحس بيده اليسرى تماماً لكنه أبطأ انفلات الخيط بكل ما في استطاعته بيمناه فاندفع الخيط خارجاً. أخيراً، عثرت يده اليسرى على الخيط ومال إلى الخلف عليه وجرح الخيط ظهره ويده اليسرى، وتلقت يده اليسرى كل الجهد والألم بحدة. التفت إلى الخلف ونظر إلى لفات الخيط وكانت تنحل والخيط يفلت داخلاً الماء بسلاسة. عندئذ تماماً، قفزت السمكة محدثة انفجاراً هائلاً في المحيط ثم سقوطاً ثقيلاً. قفزت مرة أخرى ومرة أخرى واندفع القارب بسرعة مع أن الخيط ظل يندفع منفلتاً من اللفة والرجل العجوز يرفع التوتر إلى نقطة الإنقطاع ويرفعه إلى نقطة الإنقطاع مراراً وتكراراً. جذب وطرح على أرضية المقدمة وحط وجهه في شريحة الدلفين المقطوعة ولم يستطع الحركة.

فكّر: هذا ما كنا ننتظره. لنأخذه الآن.

فكّر: إجعله يدفع مقابل الخيط. اجعله يدفع مقابله.

لم ير قفزات السمكة لكنه سمع فقط انكسار المحيط وطرطشتها الثقيلة وهي تسقط. كانت سرعة الخيط تجرح يديه على نحو سيىء لكنه كان يعرف دائماً أن هذا سيحدث وحاول أن يبقي الجرح على الأجزاء المتصلبة ولا يدع الخيط ينزلق إلى راحة اليدين أو يجرح الأصابع.

فكّر: لو كان الولد هنا لبلل لفات الخيط. نعم، لو كان الولد هنا. لو كان الولد هنا.

كر الخيط منفلتاً أكثر فأكثر لكنه كان يتباطأ الآن وكان يجعل السمكة على أن تحصل على كل بوصة من الخيط

بصعوبة. الآن، رفع رأسه عن الخشب وبعيداً عن شريحة السمكة التي سحقها خده. ثم ركع على ركبتيه ونهض ببطء واقفاً. كان يرخي الخيط لكن ببطء متزايد طيلة الوقت. تراجع إلى حيث يمكنه أن يتحسس بقدمه لفات الخيط التي لم يكن يراها. كان لا يزال هناك الكثير من الخيط وكان على السمكة الآن أن تجذب احتكاك كل ذلك الخيط الجديد في الماء.

فكّر: نعم. والآن، بعد أن قفزت أكثر من عشر مرات وملأت جيوبها الممتدة على طول ظهرها بالهواء، لن تستطيع الغوص عميقاً لتموت في مكان لا أستطيع إخراجها منه. سرعان ما ستبدأ بالدوران وعندئذ يجب أن أشاغلها. ترى ما الذي جعلها تبدأ فجأة على هذا النحو؟ هل يمكن أن يكون الجوع هو الذي جعلها يائسة، أم هل كانت خائفة من شيء ما في الليل؟ قد تكون أحست بالخوف فجأة. لكنها كانت سمكة هادئة وقوية جداً وبدت شجاعة وواثقة من نفسها إلى حد كبير. هذا غريب.

قال: "يحسن بك أن تكون أنتَ نفسك شجاعاً وواثقاً من نفسك يا عجوز. أنت تمسك بها مرة ثانية لكنك لا تستطيع استرداد الخيط. لكنها سرعان ما سيكون عليها أن تقوم بالدوران".

أمسك بها الرجلُ العجوز بيده اليسرى وكتفيه الآن وانحنى إلى أسفل وغرف ماء في يده اليمنى ليزيل لحم الدلفين المسحوق عن وجهه. كان يخشى أن يصاب الغثيان ويقيء ويفقد قوته. حين نظف وجهه، غسل يده

اليمنى في الماء من فوق جانب القارب وعندئذ تركها في الماء المالح بينما راح يراقب الضوء الأول يبزغ قبل شروق الشمس. فكر: إنها تتجه نحو الشرق تقريباً. ذلك يعني أنها تعبة وتجري مع التيار. سرعان ما سيكون عليها أن تدور. حينئذ يبدأ عملنا الحقيقيّ.

بعد أن قدر أن يده اليمنى بقيت في الماء مدةً كافية أخرجها ونظر إليها.

قال: "إنها ليست سيئة. والألم لا يهم الرجل".

أمسك بالخيط بحرص حتى لا يقع في أي جرح جديد من الخيط ونقل ثقله حتى يضع يده اليسرى في البحر من الجانب الآخر من الزورق.

قال ليده اليسرى: "لم تقومي بالعمل على نحو سيء من أجل شيء بلا قيمة. لكن مرت لحظة لم أجدكِ فيها".

فكر: لماذا لم أولد بيدين ماهرتين؟ ربما كانت غلطتي أنني لم أدرب تلك اليد تدريباً سليماً. لكن الله يعلم أنه قد أتيحت لها فرص كافية لتتعلم. مع هذا لم تقم بالعمل على نحوٍ سيء في الليل، وقد تشنجت مرة واحدة. إذا تشنجت مرة أخرى، ليقطعها الخيط ويفصلها.

حين فكر بذلك، عرف أنه لم يكن صافي الرأس وفكر أن عليه أن يمضغ بعض المزيد من لحم الدلفين. أخبر نفسه: لكنني لا أستطيع. يحسن أن تكون خفيف الرأس على أن تفقد قوتك من الغثيان. وأنا أعرف أنني لا أستطيع أن أبقيه إن أنا أكلته لأن وجهي وقع عليه. سأبقيه للطوارىء حتى يفسد. لكنه فات الأوان الآن أن تحاول بث القوة فيك من خلال التغذية. حدث نفسه: أنت

غبي. كُل السمكة الطائرة الأخرى.

كانت هناك، منظفةً وجاهزة، فالتقطها بيده اليسرى وأكلها ماضغاً العظام باحتراس وآكلاً إياها كلها حتى الذيل.

فكر: فيها تغذية أكثر من أي سمكة تقريباً. على الأقل، نوع القوة التي احتاج إليها. فكر: الآن فعلت ما أستطيع. دعها تبدأ بالدوران ولينشب القتال.

كانت الشمس تشرق للمرة الثالثة منذ أن خرج إلى البحر حين بدأت السمكة بالدوران.

لم يرَ من ميل الخيط أن السمكة كانت تدور. كان الوقت أبكر من أن يرى ذلك. أحس فقط بارتخاء طفيف في ضغط الخيط وبدأ يجذبه بلطف بيده اليمنى. توتر الخيط، كما يحصل دائماً، لكن، حين وصل تماماً إلى نقطة انقطاعه، بدأ يأتي إليه. زلق كتفيه ورأسه من تحت الخيط وبدأ يجذبه نحوه باطراد ولطف. استعمل كلتا يديه في حركة متأرجحة وحاول أن يقوم بالجذب قدر الإمكان بجسمه ورجليه. تمحورت رجلاه وكتفاه العتيقة مع تأرجح الجذب.

قال: "إنها دائرة كبيرة جداً. لكنها تقوم بالدوران".

ثم لم يعد الخيط يأتي إليه وأمسك به حتى رأى القطرات تتقافز منه تحت الشمس. ثم بدأ الخيط يكر خارجاً وركع الرجل العجوز وتركه آسفاً يعود إلى داخل الماء الداكن.

قال: "إنها تقوم بالجزء البعيد من دائرتها الآن". فكر: يجب أن أمسك بأقصى ما أستطيع. سيقصر الشد دائرتها كل مرة. ربما سأراها خلال ساعة. الآن، يجب أن

أقنعها، ثم يجب أن أقتلها.
لكن السمكة استمرت تدور ببطء فتبلل الرجل العجوز بالعرق وتعب حتى عظامه بعد ساعتين. لكن الدوائر أصبحت أقصر بكثير الآن، ومن طريقة ميلان الخيط عرف أن السمكة ارتفعت باطراد فيما كانت تسبح.
طوال ساعة، ظل الرجل العجوز يرى بقعاً سوداء أمام عينيه وملح العرق عينيه وملح الجرح تحت عينيه وعلى جبهته. لم يكن خائفاً من البقع السوداء. كانت شيئاً طبيعياً نتيجة الجهد الذي يبذله في جذب الخيط. مع هذا، مرتين أحس بالإغماء والتشوش وأقلقه هذا.
قال: "لا يمكن أن أضعف نفسي وأميتها على سمكة كهذه. الآن وقد حملتها على المجيء على هذا النحو الجميل، ساعدني يا ربي على أن أتحمل. سأتلو مائة مرة أبانا ومائة مرة السلام عليكِ يا مريم. لكنني لا أستطيع تلاوتها الآن".
فكر: اعتبر أنها تُليت. سأتلوها فيما بعد.
في تلك اللحظة تماماً، أحس بخبط واهتزاز في الخيط الذي يمسك به بيديه الاثنتين. كان حاداً وشديد التأثير وثقيلاً.
فكر: إنها تضرب سلك قاعدة الصنارة بحربتها. هذا حتميّ. كان عليها فعل هذا. لكن، قد يجعلها هذا تقفز وأنا أفضل لو أنها واصلت دورانها الآن. القفزات ضرورية لها لتستنشق الهواء. لكن بعد ذلك، كل قفزة ستوسع فتحة الصنارة فتتمكن من أن تقذف هي بالصنارة.

قال: "لا تقفزي يا سمكة. لا تقفزي".
ضربت السمكة السلك مرات عديدة وفي كل مرة هزّت فيها رأسها أرخى لها الرجل العجوز الخيط.
فكر: يجب أن أبقي ألمها حيث هو. لا يهم ألمي. يمكنني السيطرة على ألمي. لكن ألمها يدفعها إلى الجنون.
بعد وهلة، توقفت السمكة عن ضرب السلك وبدأت تدور ببطء ثانية. راح الرجل العجوز يستعيد الخيط باطراد الآن. لكنه أحس بالضعف ثانية. رفع بعض ماء البحر بيده اليسرى وصبه على رأسه. ثم صب المزيد عليه ودلّك قفا رقبته.
قال: "لم أُصب بتشنج. ستصعد عما قليل وأنا أستطيع أن أصمد. يجب أن تصمد. لا تتحدث عن هذا".
ركع مستنداً على مقدمة القارب، وللحظة من الزمن، زلق الخيط فوق ظهره ثانية. فكر: سأستريح الآن بينما هي تتابع دورانها ثم أقف وأعالجها حين تقترب.
كان إغراء كبيراً أن يستريح عند المقدمة ويترك السمكة تتم دائرة واحدة لوحدها دون أن يستعيد شيئاً من الخيط. لكن، حين أظهر التوتر بأن السمكة استدارت لتتجه نحو القارب، وقف الرجل العجوز وبدأ بالجذب المتمحور والمتمايل مما أدى إلى أن يلف كل الخيط الذي كسبه.
فكر: أنا أشد تعباً مما كنت في أي وقت مضى، وها هي الريح التجارية تهب الآن. لكنها ستكون جيدة لتدفع السمكة إلى الشاطىء معها. أنا بحاجة شديدة إلى ذلك.
قال: "سأستريح في المرة التالية حين تخرج. أحس بأنني أحسن بكثير. ثم، بعد دورتين أو ثلاث دورات سأمسك

بها".

استقرت قبعته القشية بعيداً على مؤخرة رأسه وغطس هو في المقدمة مع جذب الخيط وهو يحس بالسمكة تدور.

فكر: أنتِ تعملين الآن يا سمكة. سآخذك عند الدوران.

ارتفع البحر ارتفاعاً ملحوظاً. لكن الريح كانت نسيمَ طقس معتدل وأرادها أن تصل إلى الوطن.

قال: "سأوجه القارب جنوباً وغرباً. لا يضيع الإنسان أبداً في البحر فهي جزيرة طويلة".

عند الدوران الثالث رأى السمكة أول مرة.

رآها أولاً كظل داكن استغرق وقتاً طويلاً للمرور تحت القارب حتى أنه لم يصدق طولها.

قال: "لا. لا يمكن أن تكون ضخمة إلى هذا الحد".

لكنها كانت ضخمة إلى ذلك الحد وعند نهاية هذه الدائرة ظهرت على السطح على بعد ثلاثين ياردة فقط ورأى الرجل ذيلها خارج الماء. كان الذيل أكبر من نصل منجل كبير بلون خزامي شاحب جداً فوق الماء الأزرق الداكن. مال الذيل عائداً ليهبط إلى الماء وبينما كانت السمكة تسبح تحت السطح رأى الرجل العجوز حجمها الهائل والخطوط الأرجوانية المرسومة عليها. كانت زعانفها الظهرية هابطة إلى أسفل وزعانفها الصدرية الهائلة مفرودة على مداها.

في هذه الدائرة رأى الرجل العجوز عين السمكة والسمكتين الماصتين اللتين كانتا تسبحان حولها. أحياناً، التصقتا بها. أحياناً انفصلتا عنها. أحياناً سبحتا بهدوء في

ظلها. كان طول كل منهما يزيد عن ثلاثة أقدام، وحينما تسبحان بسرعة، تروحان تسوطان كامل جسميهما مثل سمك الأنقليس.

عرِق الرجل العجوز الآن لكن من شيء آخر إضافة إلى الشمس. في كل دورة هادئة رخية تدورها السمكة كان يستعيد خيطاً وكان متأكداً من أنه بعد دورتين أخريين ستتاح له فرصة طعنها بالحربون.

فكر: لكنني يجب أن أقربها أكثر فأكثر. يجب ألاّ أحاول الوصول إلى الرأس. يجب أن أصل إلى القلب.

قال: "كن هادئاً وقوياً يا عجوز".

في الدورة التالية، خرج ظهر السمكة لكنها كانت أبعد قليلاً عن القارب. في الدورة التي تلتها ظلت بعيدة جداً لكنها كانت أكثر ارتفاعاً فوق الماء وكان الرجل العجوز متأكداً من أنه إذا استرد المزيد من الخيط فإنه سيوصلها إلى جانب القارب.

كان قد جهز حربونه منذ مدة طويلة وكانت لفة حبله الخفيف في سلة مدورة ثبتت نهايته في مربط الحبال في المقدمة.

كانت السمكة تتابع تضييق حلقة دائرتها وتقترب من القارب وهي الآن هادئة وجميلة المنظر وذيلها العظيم فقط يتحرك. جذبها الرجل العجوز بأقصى ما يستطيع حتى يقربها أكثر. للحظة فقط، استدارت السمكة قليلاً على جنبها. ثم استقامت وبدأت تدور دورة أخرى.

قال الرجل العجوز: "حركتها. حركتها إذن".

أحس الآن بالوهن ثانية لكنه أمسك بالسمكة العظيمة

بكل الجهد الذي يقدر عليه. فكّر: حركتها. ربما أتمكن هذه المرة من أن أتغلّب عليها. فكّر: إسحبا يا يدان. تماسكا يا رجلان. إبقَ من أجلي يا رأس. ابقَ من أجلي. أنتَ لم تفارقني أبداً. هذه المرة سأجرها وأقربها.

لكنه حين بذل كامل جهده في الجذب، بادئاً تماماً قبل أن تصل السمكة إلى جانب القارب، وجاذباً بكل قوته، قطعت السمكة جزءاً من الطريق مقتربة ثم عدلت نفسها وسبحت مبتعدة.

قال الرجل العجوز: "يا سمكة. يا سمكة، سيكون عليكِ أن تموتي على أي حال. هل عليك أن تقتليني أيضاً؟"

فكّر: بتلك الطريقة لا يُنجز شيء. كان فمه أجفّ مما يمكنه أن يتكلم لكنه لم يستطع أن يصل إلى الماء الآن. فكّر: يجب أن أوصله إلى جانب الزورق هذه المرة. لستُ قادراً على دورات كثيرة أخرى. خاطب نفسه: نعم، أنتَ قادر. أنتَ قادر إلى الأبد.

في الدورة التالية، كاد أن يسيطر عليها. لكنّ السمكة عدلت وضعها مرة أخرى وسبحت مبتعدة ببطء.

فكّر الرجل العجوز: أنت تقتلينني يا سمكة. لكن من حقك أن تفعلي هذا. أبداً لم أرَ شيئاً أعظم أو أجمل أو أهدأ أو أنبل منكِ يا أختي. تعالي واقتليني. لا يهمني من يقتل من.

فكر: أصبحتَ الآن مشوشاً في رأسك. يجب أن تبقي رأسك صافياً. أبقِ رأسك صافياً وأعرف كيف تحتمل كرجل. فكّر: أو كسمكة.

قال بصوت سمعه بصعوبة: "إصفَ يا رأس. إصفَ".
مرتان أخريان ظل الوضع كما هو عند الدوران.

فكر الرجل العجوز: أنا لا أعرف. كان عند نقطة الإحساس بالوهن إلى درجة الإغماء في كل مرة. أنا لا أعرف. لكنني سأحاول هذا مرة أخرى.

حاول هذا مرة أخرى وأحس بأنه ينهار حين أدار السمكة. عدلت السمكة وضعها وسبحت مبتعدة مرة أخرى ببطء وذيلها الكبير يلوح في الهواء.

وعد الرجل العجوز رغم أن يديه أصبحتا الآن طريتين ويرى جيداً بومضات فقط: سأحاول هذا مرة أخرى.

حاول مرة أخرى وحدث نفس الشيء. فكّر: هكذا، وأحس بنفسه ينهار قبل أن يبدأ؛ سأحاول مرة أخرى.

إستجمع كل آلامه وما بقي له من قوة ومن كبريائه التي ولّت منذ مدة طويلة وحشدها ضد صراع السمكة العنيف فاقتربت السمكة إلى جانبه وسبحت بلطف إلى جانبه ومنقارها يكاد يلامس ألواح خشب الزورق، وبدأت تتجاوز القارب طويلة وعميقة وعريضة وفضية ومقضبة بلون أرجواني ولامتناهية في الماء.

أسقط الرجل العجوز الخيط ووضع قدمه عليه ورفع الحربون إلى أعلى ما يستطيع ودفعها إلى أسفل بكل قوته، وبمزيد من قوة استجمعها للتو، في جنب السمكة خلف زعنفه الصدر الهائل تماماً التي ارتفعت عالياً في الهواء إلى طول صدر الرجل. أحس بالحديد يدخل فيها ومال على الحربون ودفعه إلى أبعد ودفع بعدئذ كل ثقله عليه.

حينذاك، عادت السمكة إلى الحياة، وموتها يسري

فيها، وارتفعت عالياً خارجةً من الماء عارضةً طولها وعرضها العظيمين وكل قوتها وجمالها. بدا أنها تتعلق في الهواء فوق الرجل العجوز في الزورق. ثم سقطت في الماء بصخب تحطيم مثيرة رذاذاً فوق الرجل العجوز وفوق الزورق كله.

أحس الرجل العجوز بالإعياء والغثيان ولم يستطع أن يرى جيداً. لكنه حل خيط الحربون وتركه يجري ببطء بين يديه المسلوختين ورأى، حين تمكن من الرؤية، أن السمكة تتمدد على ظهرها وبطنها الفضي إلى أعلى. برزت قصبة الحربون مكونة زاوية على كتف السمكة والبحر يتلطخ بلون الدم الأحمر النازف من قلبها. في بادىء الأمر، كان داكناً كسرب سمك الماء الأزرق الذي يتجاوز عمقه الميل. ثم انتشر كسحابة. كانت السمكة فضية وساكنة وطفت مع الأمواج.

أمعن الرجل العجوز النظر في ومضات الرؤية التي تنتابه. ثم لف لفتين من خيط الحربون حول مربط الحبال في مقدمة القارب ووضع رأسه بين يديه.

قال أمام خشب المقدمة: "لأحافظ على صفاء رأسي. أنا رجل عجوز متعب. لكنني قتلت هذه السمكة التي هي أختي وعليّ أن أقوم الآن بعمل عبد".

فكر: يجب أن أعد الأنشوطات والحبل الآن لكي أربطها إلى جانب القارب. حتى لو كنا اثنين وغمرنا الزورق بالماء لحمله لها ثم أفرغناه من الماء، فلن يستطيع هذا القارب حملها أبداً. يجب أن أعد كل شيء، ثم أقربها وأربطها جيداً وأرفع الصاري وأنشر الشراع للإبحار نحو

الوطن.

بدأ بجذب السمكة نحوه حتى تستقر على طول جانب الزورق فيتمكن من إدخال خيط خلال خياشيمها ويخرجه من فمها ويثبت رأسها بإحكام على طول المقدمة. فكر: أريد أن أراها وألمسها وأتحسسها. فكر: إنها قدري. لكن ذلك ليس لسبب رغبتي في أن أتحسسها. فكر: أظن أنني تحسست قلبها. حين دفعت قصبة الحربون للمرة الثانية. قربها الآن وثبتها وأحطها بأنشوطة حول ذيلها وانشوطة أخرى حول وسطها لتشدها إلى الزورق.

قال: "ابدأ العمل يا عجوز". شرب جرعة صغيرة من الماء. "يوجد الكثير جداً من عمل العبيد للقيام به الآن بعد أن انتهى القتال".

رفع نظره إلى السماء ثم إلى سمكته. نظر إلى الشمس بإمعان. فكر: لم يتجاوز فترة الظهر بوقت طويل. والريح التجارية تهب. والخيوط كلها لا تعني شيئاً الآن. سأربطها بجدل طاقات الحبل معاً أنا والولد حين نصل إلى الوطن.

قال: "تعالي يا سمكة". لكن السمكة لم تأتِ. بدلاً من ذلك تمددت هناك متمرغةً الآن في البحار وجذب الرجل العجوز الزورق نحوها.

حتى حين أصبح جنباً إلى جنب مع السمكة واستقر رأسها عند مقدمة القارب، لم يصدق حجمها. لكنه حل حبل الحربون عن مربط الحبال، وأدخله في خياشيم السمكة وأخرجه من فكيها، ولفه لفة واحدة حول سيفها ثم أدخل الحبل في الخيشوم الآخر، ولف لفة أخرى حول

المنقار وعقد الحبل المزدوج وثبّته بإحكام على مربط الحبال في المقدمة. قطع الحبل بعدئذ واتجه إلى مؤخرة القارب ليربط الذيل. تحول لون السمكة من لونه الأرجواني والفضي الأصليين إلى لون الفضة، وظهرت الخطوط الطولية بنفس لون الذيل البنفسجي الشاحب. كانت أعرض من يد رجل وقد فردت أصابعها وبدت عين السمكة زجاجية كمرايا منظار بيريسكوب أو كقديس في موكب.

قال الرجل العجوز: "كانت الطريقة الوحيدة لقتلها". كان في حال أفضل بسبب الماء وعرف أنه لن يغمى عليه وكان رأسه صافياً. فكر: إنها تزن ما يزيد عن ألف وخمسمائة رطلاً على ما تبدو عليه. ربما أكثر بكثير. إذا بقي ثلثاها بعد إزالة الزوائد بسعر ثلاثين سنتاً للرطل الواحد؟

قال: "أحتاج إلى قلم لذلك. ليس رأسي صافياً إلى ذلك الحد. لكنني أظن أن دي ماجيو العظيم سيكون فخوراً بي اليوم. لست مصاباً بمهاميز عظام. لكن يديّ وظهري يؤلمني حقاً". فكر: ترى ما هو مهماز العظام. ربما نصاب به دون أن نعرفه.

ثبت السمكة بإحكام بمقدمة ومؤخرة القارب وبمقعد التجذيف الأوسط. كانت كبيرة لدرجة أن ربطها به كان كربط زورق أكبر من زورقه هذا بكثير. قطع قطعة خيط وربط فك السمكة الأسفل بمنقارها حتى لا ينفتح فمها فيبحروا بأسلس ما يمكن. ثم ثبت الصاري، وبالعصا التي كانت محجنه وبعموده والشراع مثبت عليه، انتفخ الشراع المرقع، وبدأ القارب يتحرك، وبينما هو مستلقٍ

نصف استلقاء في المؤخرة، أبحر إلى الجنوب الغربي.

لم يحتج إلى بوصلة لتحدد له أين يقع الجنوب الغربي. احتاج فقط إلى الإحساس بالريح التجارية وانتفاخ الشراع. يحسن أن أضع خيطاً قصيراً مع ملعقة عليه وأحاول الحصول على شيء آكله وأشربه لأبلل حلقي. لكنه لم يجد ملعقة وكان سردينه عفناً. التقط جزمة من عشب الخليج الأصفر بالمحجن حين مرت وهزها حتى سقط الجمبري الصغير الذي كان فيها على ألواح خشب الزورق. كانت هناك أكثر من دزينة منها قفزت ورفست مثل براغيث رمل. انتزع الرجل العجوز رؤوسها بإبهامه وسبابته وأكلها ماضغاً الصدفات والذيول. كانت دقيقة جداً لكنه كان يعرف أنها مغذية ولها مذاق طيب.

ظلت لدى الرجل العجوز جرعتان من الماء في القنينة وشرب نصف جرعة بعد أن أكل الجمبري. أبحر الزورق جيداً، مع اعتبار العقبات ووجه الزورق ومقبض الدفة تحت ذراعه. كان يرى السمكة وكان عليه أن ينظر فقط إلى يديه ويحس بظهره مؤخرة الزورق ليعرف أن هذا قد حدث حقاً وأنه لم يكن حلماً. في إحدى المرات، حين كان يحس إحساساً متشائماً نحو النهاية، فكر أن هذا قد يكون حلماً. ثم، وحين رأى السمكة تخرج من الماء وتتعلق ساكنة في السماء قبل أن تسقط، تأكد من وجود غرابة عظيمة ولم يصدق وجودها. حينذاك لم يعد قادراً على أن يرى جيداً، مع أنه يرى الآن جيداً كما كان يرى في السابق.

عرف الآن أن هناك سمكة وأن يديه وظهره ليست

حلماً. فكّر: اليدان تشفيان بسرعة. لقد أنزفتهما تماماً وسيشفيهما ماء البحر. ماء تيار الخليج الداكن أعظم مداوٍ في الوجود. كل ما يجب أن أفعله هو أن أبقي رأسي صافياً. لقد أنهت اليدان عملهما ونحن نبحر جيداً. وفمها مطبق وذيلها قائم عمودياً، نبحر كلانا كأخوين. ثم بدأ رأسه يصبح غير صافٍ قليلاً وفكر: هل هي التي تقودني نحو اليابسة أم أنا الذي أقودها؟ لو كنت أقطرها خلفي لما كان هناك أي سؤال. لو كانت السمكة في الزورق، وقد فقدت كرامتها كلها، لما كان هناك أي سؤال أيضاً. لكنهما كانا يبحران معاً وقد ربطا جنباً إلى جنب وفكّر الرجل العجوز: لتقودني إلى البر إذا راقها هذا. أنا أتفوق عليها فقط بالحيلة وهي لم تقصد أن تصيبني بأي أذى.

أبحرا جيداً ونقع الرجل العجوز يديه في الماء المالح وحاول أن يبقي رأسه صافياً. تجمعت هناك عالياً سحب قزع وما يكفي من سحب الطخرور فوقها فعرف الرجل العجوز أن النسيم سيهب طوال الليل. نظر الرجل العجوز إلى السمكة بثبات ليتأكد من أنها حقيقية. كان هذا قبل ساعة من هجوم أول سمك القرش عليها.

لم يكن القرش صدفة. صعد من عمق الماء في الأسفل حينما استقرت سحابة الدماء الداكنة وانتشرت في البحر بعمق ميل. صعد بسرعة هائلة بلا حذر حتى أنه شق سطح الماء الأزرق وأصبح تحت الشمس. ثم سقط عائداً إلى داخل البحر والتقط الرائحة وبدأ يسبح في المسار الذي سلكه الزورق والسمكة.

أحياناً، ضيّع الرائحة. لكنه سيعيد التقاطها ثانية، أو

يعثر على أثر لها، وسبح بسرعة وجدٍّ في المسار. كان قرش ماكو كبير وقد بني جسمه ليسبح بسرعة أسرع سمكة في البحر وكان كل ما يحيط به جميلاً ما عدا فكّه. كان ظهره بزرقة سمكة سيف وبطنه فضياً وجلده ناعماً وجميلاً. كان قد تشكل كسمكة سيف ما عدا فكيّه الهائلين محكمَي الإطباق الآن وهو يسبح بسرعة تحت السطح مباشرة وزعنفته الظهرية العالية تشق كالسكين الماء دون أن تتمايل. داخل شفة فكيه المزدوجة المغلقة، مالت ثمانية صفوف الأسنان كلها إلى الداخل. لم تكن الأسنان العادية الهرمية الشكل لمعظم أسماك القرش. إنها مشكّلة كأصابع إنسان حين تكون ملتوية كالبراثن. إنها بطول أصابع الرجل العجوز تقريباً ولها حواف قطع بحدة موسى على كلا الجانبين. تشكلت هذه السمكة لتتغذى على كل الأسماك في البحر، وهي سريعة وقوية ومسلحة تسليحاً جيداً لدرجة أنه لا يوجد عدو آخر يهددها. زادت الآن من سرعتها حين اشتمت الرائحة الطازجة وشقت زعنفتها الظهرية الماء.

حين رآه الرجل العجوز يقترب، عَرَف أنه قرش لا يعرف الخوف إطلاقاً وسيفعل تماماً ما يشاء. أعدّ الحربون وثبت الحبل بينما راقب القرش يقترب. كان الحبل قصيراً لما قطعه منه لربط السمكة.

كان رأس الرجل العجوز صافياً وجيداً الآن وكان يمتلئ عزماً لكن أملاً ضعيفاً راوده. فكّر: إنه أمل أجمل من أن يدوم. ألقى نظرة واحدة على السمكة العظيمة وهو يراقب القرش يقترب. فكّر: قد يكون هذا حلماً هو

الآخر. لا يمكنني منعه من ضربي لكنني قد أتمكن من القضاء عليه. فكّر: Dentuso/ يا أبا الأسنان. ليحلّ سوء الحظ على أمك.

اقترب القرش من المؤخرة بسرعة وحين ضرب السمكة رأى الرجل العجوز فمه ينفتح وعينيه الغريبتين وطقطقة حركة قطع الأسنان السريعة وهو يندفع إلى الأمام في اللحم فوق الذيل تماماً. كان رأس القرش خارج الماء وظهره يخرج وسمع الرجل ضجة الجلد واللحم يتمزقان عن السمكة الكبيرة حين دفع الحربون في رأس القرش في بقعة يتقاطع فيها الخط بين عينيه مع الخط الذي يجري مرتداً مباشرة من أنفه. لم تكن هناك مثل هذه الخطوط. كان هناك فقط الرأس الثقيل الحاد الأزرق والعينان الكبيرتان والفكان المطقطقان المندفعان المتلهفان لكل شيء. لكن ذلك كان موضع الدماغ وضربه الرجل العجوز. ضربه بيديه المسلوختين الداميتين دافعاً حربوناً جيداً بكامل قوته. ضربه بلا أمل لكن بتصميم وحقد تام.

انقلب القرش ورأى الرجل العجوز أن عينه خالية من الحياة ثم انقلب مرة أخرى، لافاً نفسه بالحبل مرتين. عرف الرجل العجوز بأنه كان ميتاً لكن القرش لن يقبل هذا. ثم، بينما هو على ظهره، وذيله يسوط وفكاه يطرطقان، جرى فوق الماء كما يفعل قارب سباق. كان الماء أبيض حيث يضرب ذيله وكان ثلاثة أرباع جسمه ظاهراً فوق الماء حين انشد الحبل متوتراً واهتز ثم انقطع. تمدد القرش بهدوء لوهلة قصيرة على السطح وراقبه الرجل العجوز. ثم هبط إلى أسفل ببطء شديد.

قال الرجل العجوز بصوت عال: "أخذ حوالي أربعين رطلاً". فكّر: أخذ حربوني أيضاً وكل الحبل، والآن، سمكتي تنزف مرة أخرى وستصل أسماك قرش أخرى.

لم يعد يحب النظر إلى السمكة منذ أن بترت. حين ضربت السمكة كان الأمر كأنه ضرب هو نفسه.

فكّر: لكنني قتلت القرش الذي هاجم سمكتي. وكان أكبر أبي أسنان رأيته في حياتي. والله يعلم بأنني رأيت أسماك قرش ضخمة.

فكّر: إن هذا أروع مما يمكن أن يدوم. ليت هذا يكون حلماً ولم أعلق السمكة أبداً وأتمدد الآن وحيداً في السرير على الجرائد.

قال: "لكن الإنسان لم يخلق للهزيمة. قد يدمر الإنسان لكنه لا يهزم. فكّر: أنا آسف لقتلي السمكة مع هذا. الآن سيحل الوقت السيىء وليس لدي حتى حربون. أبو الأسنان قاس وقادر وقوي وذكي. لكنني أذكى منه. فكّر: قد لا أكون كذلك. ربما كنت أفضل تسليحاً فقط.

قال الرجل العجوز بصوت عال: "لا تفكر يا عجوز. تابع الإبحار في هذا الاتجاه وواجه الهجوم حين يقع".

فكّر: لكنني يجب أن أفكر. لأن التفكير هو كل ما بقي لي. التفكير والبيسبول. ترى كيف سيرى دي ماجيو العظيم الطريقة التي ضربته بها في دماغه؟ فكّر: لم يكن شيئاً عظيماً. يستطيع أي إنسان أن يفعل هذا. لكن، هل تظن أن يديّ كانتا عائقاً كبيراً كمهاميز العظام؟ لا أعرف. لم أصب بعيب في عقبيّ ما عدا في الوقت الذي لدغتني سمكة راي ray حين دست عليها وأنا أسبح وشلّت الرجل

السفلى وأصابتني بألم لا يحتمل.

قال الرجل العجوز: "فكِّر بشيء مفرح يا عجوز. كل دقيقة الآن تقربك من الوطن. أنتَ تبحر الآن بوزن أخف لفقدك أربعين رطلاً".

عرف تماماً نمط ما قد يحدث حين يصل إلى الجزء الداخلي من التيار. لكن لايوجد ما يمكن فعله الآن.

قال بصوت عالٍ: "نعم، هناك ما يمكن فعله. يمكنني ربط سكيني إلى عقب أحد المجذافين".

فعل هذا وذراع الدفة تحت ذراعه والشراع تحت قدمه.

قال: "الآن. ما زلتُ رجلاً عجوزاً. لكنني لستُ بلا سلاح".

كان النسيم عليلاً الآن وواصل الإبحار بسلاسة. راقب الجزء الأمامي من السمكة فقط وعاد إليه بعض أمله.

فكّر: من السخف ألاّ يراودك أمل. إضافة إلى أنني أومن أن فقدان الأمل خطيئة. فكّر: لا تفكر بالخطيئة. يوجد ما يكفي من المشاكل الآن غير الخطيئة. كما أنه ليس لدي أي فهم لها.

ليس لدي أي فهم لها ولستُ متأكداً من أنني أؤمن بها. ربما كانت خطيئةً أن أقتل السمكة. أظن أنها كذلك مع أنني قمت بهذا لأبقى حياً وأغذي الكثير من الناس. لكن، عندئذ، يكون كل شيء خطيئة. لا تفكر بالخطيئة. لقد فات الأوان تماماً على ذلك وهناك أناس يدفع لهم ليفكروا فيها. دعهم يفكرون بها. لقد ولدتَ لتكون صياداً كما ولدت السمكة لتكون سمكة. كان سانبدرو/ القديس بطرس صياداً وكذلك كان أبو دي ماجيو

العظيم.

لكنه يحب التفكير في كافة الأمور التي ارتبط بها وحيث أنه لا يوجد شيء يقرأه وليس لديه جهاز إذاعة مسموعة، فكّر كثيراً وظل يفكر في الخطيئة. فكّر: لم تقتل السمكة فقط لتبقى حياً وتبيعها لتكون طعاماً. أنتَ قتلتها للفخر ولأنك صياد. لقد أحببتها حين كانت حية وأحببتها بعد ذلك. إذا أحببتَها فليس خطيئةً أن تقتلها. أو أن الأمر أكبر من هذا؟

قال بصوت عالٍ: "أنتَ تفكّر كثيراً جداً يا عجوز".

فكّر: لكنك استمتعت بقتل أبي الأسنان. إنه يعيش على السمك الحيّ كما تفعل أنت. إنه ليس آكل جيف وليس مجرد شهية متحركة كبعض سمك القرش. إنه جميل ونبيل ولا يعرف الخوف من أي شيء.

قال الرجل العجوز بصوت عالٍ: "قتلتُه دفاعاً عن النفس. وقتلته تماماً".

فكر: إضافة إلى أن الكل يقتل الكل الآخر بطريقة من الطرق. صيد السمك يقتلني بالضبط كما يبقيني حياً. فكّر: الولد يبقيني حياً. يجب ألاّ أخدع نفسي كثيراً جداً.

مال فوق جانب الزورق ونزع قطعة من لحم السمكة من المكان الذي نهش فيه القرش. مضغها ملاحظاً نوعيتها وطعمها الطيب. كانت صلبة وكثيرة العصارة، مثل لحم، لكنها ليست حمراء. لا يوجد فيها ألياف وعرف أنها ستجلب أغلى سعر في السوق. لكن لا توجد طريقة لإخفاء رائحتها في الماء وعرف الرجل العجوز أن وقتاً سيئاً جداً سيحل.

هبّ النسيم باطراد. لقد ارتد قليلاً في الاتجاه الشمال شرقي وعرف أن ذلك يعني أنه لن يهدأ. نظر الرجل العجوز أمامه لكنه لم ير أشرعة كما لم ير هيكلَ أي سفينة ولا دخانها. كانت هناك الأسماك الطائرة فقط التي انطلقت من مقدم القارب مبتعدة نحو الجانبين وإلى بقع أعشاب الخليج الصفراء. لم ير أي طائر.

ظلّ يبحر لمدة ساعتين، مستريحاً في مؤخرة القارب وماضغاً أحياناً قطعة من لحم سمكة المارلين، محاولاً أن يستريح ليصبح قوياً، حين رأى أول قرشين.

قال بصوت عالٍ: "Ay/اي". لا توجد ترجمة لهذه الكلمة وربما كانت مجرد ضجة كتلك التي قد يطلقها رجل، لاإرادياً، وهو يحس بمسمار يخترق يديه ويدخل في الخشب.

قال بصوت عال: "Galanos/ قرش".

رأى الزعنفة الثانية تخرج خلف الأولى وحددهما كقرشين جاروفيي الخطم من الزعنفة السمراء المثلثة وحركات الذيل الكاسحة. التقطا الرائحة وأثيرا، وفي غباء جوعهما الكبير، كانا يضيّعان الرائحة ثم يعثران عليها أثناء هياجهما. لكنهما ظلاً يطبقان مقتربين طيلة الوقت.

ثبّتَ الرجل العجوز الشراع بإحكام وثبّت ذراع الدفة. ثم أخرج المجذاف والسكين مربوطة عليه. رفعه بأقصى ما يستطيع من خفة لأن يديه تمردتا من الألم. ثم فتحهما وأطبقهما عليه بخفة ليخفف عنهما. أطبقهما بشدة ليتلقيا الألم فلا يجفلان وراقب القرشين يقتربان. رأى الآن رأسيهما العريضين المسطحين جاروفيي الحد وزعانفهما

الصدرية بيضاء الأطراف العريضة. كانا قرشين كريهين، سيئيّ الرائحة آكلي جيف كما كانا قاتلين، وحين يكونان جائعين فانهما يعضان مجذافاً أو دفة قارب. كانت أسماك القرش هذه هي التي تقطع أرجل السلاحف وأعضاءها حين تكون السلاحف نائمة على السطح، وتهاجم رجلاً في الماء، إذا كانت جائعة، حتى ولو لم تكن تنبعث منه رائحة دم سمك أو غرى السمك.

قال الرجل العجوز: "آي. جالانوس. تعال يا جالانوس".

أقبلا. لكنهما لم يتقدما كما تقدم قرش ماكو. استدار أحدهما واختفى عن الأنظار تحت الزورق وأحس الرجل العجوز بالزورق يهتز حين رج القرش السمكة وجذبها. راقب القرش الآخر الرجل العجوز بعينيه الصفراوين الضيقتين ثم انقض مقترباً بسرعة ونصف دائرة فكيه مفتوحان على وسعيهما لينهش من السمكة حيث سبق وعضت. ظهر الخط بوضوح على قمة رأسه الأسمر وإلى الخلف حيث يتصل الدماغ بالحبل الشوكي ودفع الرجل العجوز السكين المثبتة على المجذاف في هذه الوصلة، سحبها، ودفع بها في عينيّ القرش الصفراوين الشبيهتين بعينيّ قط مرة أخرى. أفلت القرش السمكة وانزلق إلى أسفل، مبتلعاً ما أخذه وهو يموت.

كان الزورق لا يزال يهتز من الدمار الذي يقوم به القرش الآخر بالسمكة وحرر الرجل العجوز الشراع حتى يدور الزورق على محوره بالعرض ويخرج القرش من تحته. حين رأى القرش، انحنى فوق جانب الزورق وسدد

طعنة. أصاب اللحم فقط وكان الجلد قاسياً وبالكاد غُرزت السكين فيه. لم تؤلم الضربة يديه فقط بل كتفه أيضاً. لكن القرش ارتفع بسرعة وقد خرج رأسه من الماء فضربه الرجل العجوز مباشرة في وسط رأسه مسطح القمة حين خرج أنفه من الماء واستقر على السمكة. سحب الرجل العجوز النصل وطعن القرش بالضبط في نفس البقعة مرة أخرى. ظلّ متعلقاً بالسمكة وفكاه مطبقان فطعنه الرجل العجوز في عينه اليسرى. ظلّ القرش متعلقاً هناك.

قال الرجل العجوز: "لا؟" وأغمد النصل بين الفقرات والدماغ. كانت ضربة سهلة الآن وأحس بالغضروف ينشق. عكس الرجل العجوز وضع المجذاف وحشا نصله بين فكي القرش ليفتحهما. لوى النصل وفيما راح القرش ينزلق منفلتاً قال: "إذهب يا جالانو. انزلق إلى عمق ميل. إذهب ورَ صديقك، أو قد تكون أمك".

مسح الرجل العجوز نصل سكينه ووضع المجذاف جانباً. ثم رأى أن الشراع انتفخ بالهواء ووجه الزورق ليسلك طريقه.

قال بصوت عالٍ: "لابد أنهما أكلا ربعها وأفضل لحم فيها. ليت هذا كان حلماً وأنني لم أعلقها أبداً. أنا آسف على هذا يا سمكة. إن هذا يجعل كل شيء خطأ". توقف ولم يرد أن ينظر إلى السمكة الآن. بدت السمكة، وقد استنزفت دماؤها وغسلتها الأمواج، بلون الفضة التي يُطلى بها ظهر مرآة وظلّت خطوطها ظاهرة للعيان.

قال: "ما كان عليّ أن أخرج إلى هذا البعد يا سمكة.

ليس لمصلحتكِ ولا لمصلحتي. أنا آسف يا سمكة".

قال لنفسه: الآن، أنظر إلى الرباط على السكين وتأكد إنْ كان قد قُطع. وعالج يديك فهناك المزيد منها سيصل.

قال الرجل العجوز بعد أن فحص الرباط على عقب المجذاف: "ليت لدي حجر للسكين. كان يجب أن أحضر حجراً معي". فكر: كان يجب أن تحضر أشياء كثيرة. لكنك لم تحضرها يا عجوز. ليس الآن وقت التفكير بما ليس لديك. فكر بما يمكنك أن تفعله بما هو متوفر.

قال بصوت عالٍ: "أنتَ تقدم إليّ الكثير من النصائح الجيدة. أنا تعب من هذا".

أمسك بذراع الدفة تحت ذراعه ونقع كلتا يديه في الماء فيما كان الزورق يندفع إلى الأمام.

قال: "الله يعلم كم انتزع القرشُ الأخير منها. لكنها أخف بكثير الآن". لم يرد أن يفكر بالجانب السفلي المبتور. عَرَف أن كل خبطة قرش راجة تعني لحماً انتزع منها وأن السمكة خلفت الآن أثراً لكل أسماك القرش بعرض طريق عام عبر البحر.

فكر: كانت سمكة تقوم بأود رجل طيلة الشتاء. لا تفكر بذلك. استرح فقط وحاول أن تهيىء يديك للدفاع عما بقي منها. لا تعني رائحة الدم من يديّ شيئاً الآن مع كل تلك الرائحة في الماء. إضافة إلى أنها لا تنزف كثيراً. لا يوجد جرح يعني أي شيء. قد يحفظ النزيف اليد اليسري من التشنج.

فكر: بماذا أفكر الآن؟ لا شيء. يجب ألاّ أفكر بشيء وانتظر أسماك القرش التالية. فكر: ليت هذا كان حلماً

حقاً. لكن، مَنْ يعرف؟ لعله يتكشّف عن خير.

كان القرش الثاني الذي وصل قرشاً واحداً جاروفي الخطم. أتى كخنزير يأتي إلى المذود إذا كان للخنزير فم عريض جداً لدرجة أنك تضع رأسك فيه. تركه الرجل العجوز يرتطم بالسمكة ثم دفع السكين المثبتة على المجذاف في دماغه. لكن القرش ارتج مرتداً إلى الخلف وهو يتدحرج فانقصف نصل السكين.

استقر الرجل العجوز ليوجه القارب. لم يراقب القرش الكبير يغوص ببطء في الماء، مظهراً، لأول مرة، حجمه الطبيعي، ثم صغره، ثم دقته. فتن ذلك الرجل العجوز دائماً. لكنه حتى لم يراقبه الآن.

قال: "لدي المحجن الآن. لكنه لن يفعل شيئاً صالحاً. لدي المجذافان وذراع الدفة والهراوة القصيرة".

فكر: لقد هزموني الآن. أنا أكبر سناً من أن أضرب أسماك القرش بالهرواة حتى الموت. لكنني سأحاول هذا طالما ظل لدي المجذافان والهرواة القصيرة وذراع الدفة.

وضع يديه في الماء ثانية لينقعهما. تأخر الوقت في فترة بعد الظهر ولم يرَ شيئاً سوى البحر والسماء. هبت ريح في السماء زادت عما كانت في السابق، وأمل أن يرى البر قريباً.

قال: "أنتَ تعبان يا عجوز. أنت تعبان من الداخل".

لم تهاجمها أسماك القرش ثانية إلا قبل الغروب تماماً.

رأى الرجل العجوز الزعانف الداكنة تتقدم على طول الأثر العريض الذي لابد أن السمكة خلّفته في الماء. لم تكن حتى تبحث عن الرائحة. اتجهت مباشرة نحو

الزورق سابحةً جنباً إلى جنب.

ثبت ذراع الدفة وأحكم ربط الشراع ومدّ يده تحت المؤخرة بحثاً عن الهراوة. كانت مقبض مجذاف أخذت من مجذاف مكسور نشر ونزع منه بطول حوالي قدمين ونصف. كان يمكنه استعمالها بفعالية بيد واحدة فقط بسبب ممسك مقبضها وأمسك بها جيداً بيده اليمنى، حانياً يده عليها، فيما هو يراقب القرشين يقتربان. كان كلاهما جلانوس.

فكر: يجب أن أترك الأول يمسك بالسمكة جيداً ثم أضربه على حافة أنفه أو مباشرة على قمة رأسه.

اقترب القرشان معاً وحينما رأى أقربهما إليه يفتح فكيه ويغرقهما في الجانب الفضي من السمكة، رفع الهراوة عالياً ثم أهوى بها ثقيلةً وصافقةً على قمة رأس القرش العريض. أحس بالصلابة المطاطية والهراوة تهبط. لكنه أحس بقسوة العظم أيضاً وضرب القرش مرة أخرى بقوة على حافة أنفه وهو ينزلق هابطاً بعيداً عن السمكة.

كان القرش الآخر يقترب ويبتعد واقترب الآن ثانية وفكاه على وسعيهما. رأى الرجل العجوز قطعاً من لحم السمكة تندلق بيضاء من زاوية فكيه وهو يصدم السمكة ويغلق فكيه. مال عليه وضرب رأسه فقط ونظر القرش إليه ولوى اللحم وانتزعه. أهوى الرجل العجوز بالهرواة عليه ثانيةً حين انزلق مبتعداً ليبتلع وضرب الطبقة المطاطية الكثيفة الصلبة فقط.

قال العجوز: "تعال يا جلانو. تقدّم مرة أخرى".

تقدم القرش مندفعاً وضربه الرجل العجوز وهو يطبق

فكيه. ضربه بقوة ومن أعلى ارتفاع استطاع رفع الهراوة إليه. في هذه المرة أحس بالعظم عند قاعدة الدماغ وضربه ثانية في نفس المكان بينما مزق القرش اللحم وانتزعه بتكاسل وانزلق إلى أسفل مبتعدا عن السمكة.

ترقب الرجل العجوز بانتظار أن يقترب ثانية لكن أياً من القرشين لم يظهر. ثم رأى واحداً على سطح الماء يسبح في دوائر. لم ير زعنفة الآخر.

فكر: لا أتوقع أن أقتلها. كان يمكنني ذلك في زمني. لكنني أصبت كليهما إصابات خطيرة ولن يكون أي منهما في حال جيدة جداً. لو أمكنني استعمال المضرب بيديَّ الاثنتين لكنتُ قتلتُ الأول بالتأكيد. فكر: حتى الآن.

لم يرد أن ينظر إلى السمكة. عرف أن نصفها قد دمر. كانت الشمس قد هبطت إلى أسفل بينما ظلَ منهمكاً في القتال مع أسماك القرش.

قال: "سيحل الليل قريباً. عندئذ لابد أن أرى وَهَج هافانا. لو كنتُ بعيداً جداً باتجاه الشرق، سأرى أنوار أحد الشطوط الجديدة".

فكر: لا يمكن أن أكون بعيداً جداً الآن. آمل ألاّ يكون أحد قد قلق كثيراً. الولد فقط سيقلق عليّ طبعاً. لكنني متأكد من أنه يتمتع بالثقة. سيقلق كثير من الصيادين كبار السن. فكر: كثيرون آخرون أيضاً. إنني أعيش في بلدة طيبة.

لم يعد يستطيع أن يتحدث إلى السمكة لأن السمكة كانت قد خربت على نحو سيء جداً. ثم خطرت بباله فكرة.

قال: "يا نصف سمكة. أنتِ يا مَنْ كنتِ سمكة. أنا آسف لأنني ابتعدتُ كثيراً جداً. لقد حطمتُ كلانا. لكننا قتلنا الكثير من أسماك القرش، أنتِ وأنا، حطمنا أسماك قرش أخرى كثيرة. كم قتلتِ في حياتكِ يا سمكةً عجوزاً؟ ليس لديكِ هذا الرمح في رأسك للاشيء".

أحب أن يفكر في السمكة وما كان يمكنها أن تفعله بقرش لو كانت تسبح بحرية. فكر: كان يجب أن أنزع منقارها لأقاتل به سمك القرش. لكن لا توجد بلطة ولم تعد توجد سكين.

لكن لو كان لدي منقارها، وربطته إلى عقب مجذاف، فأي سلاح سيكونه. عندئذ كنا تمكنا من محاربتها معاً. ماذا ستفعل أنت الآن إذاً جاء سمك القرش في الليل؟ ماذا تستطيع أن تفعل؟

قال: "أقاتلهم. سأقاتلهم حتى أموت".

لكن في الظلام الآن، بينما لا يظهر أي وهج ولا أنوار بل الريح فقط وجذب الشراع المطرد، شعر أنه ربما كان قد مات. شبك يديه معاً وتحسس الراحتين. لم تكونا ميتتين ويمكنه أن يثير ألم الحياة بفتحهما وإغلاقهما ببساطة. أسند ظهره على مؤخرة القارب وعرف أنه لم يكن ميتاً. كتفاه أخبراه.

فكر: هناك جميع تلك الصلوات التي وعدتُ بتلاوتها إذا اصطدتُ السمكة. لكنني تعبان جداً لأتلوها الآن. يحسن أن أحضر الكيس وأضعه على كتفيّ.

استلقى في مؤخرة القارب ووجهه وراقب بحثاً عن الوهج ليظهر في السماء. فكر: لدي نصفها. قد يحالفني

الحظ لأوصل النصف إلى الشط. لابد أن يحالفني بعض الحظ. قال: لا. لقد خالفتَ حظك حين أبحرت بعيداً جداً في البحر.

قال بصوت عالٍ: "لا تكن سخيفاً. وابقَ يقظاً ووجه القارب. قد يحالفك الكثير من الحظ حتى الآن".

قال: "أود أن أشتري بعضه إذا وجد مكان يبيعونه فيه".

سأل نفسه: بماذا أشتريه؟ هل يمكنني شراؤه بحربون مفقود وسكين مكسورة ويدين جريحتين؟

قال: "قد تشتريه. حاولتَ أن تشتريه بأربعة وثمانين يوماً في البحر. كادوا يبيعونه لك أيضاً".

فكر: يجب ألا أفكر بكلام فارغ. الحظ شيء يأتي بأشكال كثيرة ومَن يستطيع أن يتعرف عليه؟ لكنني سآخذ بعضه على أي شكل كان وأدفع ما يطلبونه. فكر: ليتني أرى الوهج المنبعث من الأنوار. أتمنى أشياء كثيرة جداً. لكن هذا هو الشيء الذي أتمناه الآن. حاول أن يستقر براحة أكبر ليوجه القارب وعرف من ألمه أنه لم يكن ميتاً.

رأى وهج أنوار المدينة المنعكس فيما لابد أنها كانت حوالي الساعة العاشرة ليلاً. كانت واضحةً أول الأمر فقط كالنور في السماء قبل طلوع القمر. ثم أصبحت مستقرة فأتاحت رؤية المحيط الذي أصبح خشناً الآن مع النسيم المتزايد. وجه القارب داخل الوهج وفكر أنه الآن، وخلال وقت قصير، لابد أن يصدم حافة التيار.

فكر: الآن انتهى. قد يهاجمني ثانية. لكن، ماذا يستطيع رجل أن يفعل ضدهم في الظلام بلا سلاح؟

كان متيبساً ومتقرحاً الآن وكانت جراحه وكل الأجزاء المتوترة من جسمه تؤلم مع برد الليل. فكر: آمل ألاّ يتحتم عليّ أن أقاتل ثانيةً. آمل كثيراً جداً ألاّ يتحتم عليّ أن أقاتل ثانية.

لكن، بحلول منتصف الليل قاتل فعرف هذه المرة أن القتال غير مجدٍ. أتى سمك القرش في مجموعة ورأى فقط الخطوط في الماء التي أحدثتها زعانفها وتألقها الفوسفوري وهي تقذف بنفسها على السمكة. ضرب الرؤوس بالهراوة وسمع الفكوك تنهش واهتزاز الزورق وهي تمسك بها من تحت. ضرب بالهراوة بيأس على أمكنة أحس بها وسمعها وأحس بشيء يقبض على الهراوة وأفلتت من يده.

هز ذراع الدفة وحرره من الدفة وضرب وهوى به، ممسكاً به في كلتا يديه ودافعاً به إلى أسفل مرة تلو المرة. لكنها كانت قد وصلت إلى المقدمة الآن مقتربةً قرشاً بعد الآخر ومعاً، ممزقةً قطع اللحم التي كانت تظهر متوهجة تحت البحر فيما هي تستدير لتأتي مرة أخرى.

أخيراً، وصل واحد إلى الرأس نفسه وعرف أن كل شيء انتهى. أطاح بذراع الدفة على رأس القرش حيث حشر الفكان في ثقل رأس السمكة الذي أبى أن يتمزق. أطاح به مرة ومرتين ومرة أخرى. سمع ذراع الدفة ينكسر وطعن القرش بالعقب المشظى. أحس به يدخل لحم القرش، ولأنه كان يعرف أنه حاد، دفع به ليدخل فيه ثانية على نحو أعمق. ترك القرش السمكة وتدحرج مبتعداً. كان ذلك آخر قرش من المجموعة التي اقتربت. لم يبق شيء يأكلونه.

كان الرجل العجوز لا يكاد يستطيع أن يتنفس الآن وأحس بمذاق غريب في فمه. كان مذاقاً نحاسياً وحلواً وخاف من هذا للحظة. لكن لم يكن هناك الكثير منه.

بصق في البحر وقال: "كلوا هذا يا جلانوس. واحلموا أنكم قتلتم رجلاً".

عرف أنه هزم الآن نهائياً وبلا رجعة وعاد إلى المؤخرة ووجد أن الطرف المثلوم من ذراع الدفة يركب في فتحة الدفة تماماً مما يتيح له توجيه الزورق. وضع الكيس حول كتفيه ووجه الزورق في مساره. أبحر خفيفاً الآن ولم تخطر بباله أي أفكار ولم يحس بأي أحاسيس من أي نوع. تخطى كل شيء الآن وأبحر الزورق باتجاه ميناء الوطن على خير وجه وبراعة قدر ما يمكنه هذا. في الليل، هاجمت أسماك القرش هيكل السمكة كما قد يلتقط شخص الفتات عن المائدة. لم يلتفت الرجل العجوز إليها كما لم يلتفت إلى أي شيء آخر ما عدا توجيه الزورق. لاحظ فقط كم كان الزورق خفيفاً وكم كان يبحر جيداً الآن بعد أن لم يعد يوجد ثقل كبير إلى جانبه.

فكّر: إنه جيد. إنه سليم ولم يصب بضرر بأي طريقة ما عدا ذراع الدفة. ذلك يستبدل بسهولة.

أحس بأنه كان داخل التيار الآن ورأى أنوار مستوطنات الشاطىء على امتداد الساحل. عرف أين كان الآن ولم يكن الوصول إلى الوطن شيئاً ذا أهمية.

فكّر: الريح صديقتنا على أي حال. ثم أضاف: أحياناً. والبحر العظيم مع أصدقائنا وأعدائنا. فكّر: والسرير. السرير صديقي. فكر: السرير فقط. سيكون

السرير شيئاً عظيماً. فكّر: إنه لأمر سهل حين تهزم. لم أعرف أبداً كم هو سهل هذا. فكّر: وما يهزمك.

قال بصوت عالٍ: "لا شيء. أبحرت أبعد من اللازم".

حين أبحر داخلاً المرفأ الصغير كانت أضواء الشرفة مطفأة وعرف أن الجميع أووا إلى أسرتهم. ازداد النسيم باطراد وراح يهب بقوة الآن. كان كل شيء هادئاً في المرفأ مع ذلك وأبحر مقترباً من بقعة الحصا الصغيرة أسفل الصخور. لم يكن هناك أحد يساعده لذلك دفع القارب إلى أبعد ما أمكن. ثم خرج منه وثبته بإحكام بصخرة.

نزع الصاري وطوى الشراع وربطه. ثم تنكب الصاري وشرع بالصعود. عندئذ فقط عرف عمق تعبه. توقف للحظة والتفت إلى الخلف ورأى على انعكاس ضوء الشارع ذيل السمكة الكبير مرتفعاً خلف مؤخرة الزورق تماماً. رأى الخط الأبيض العاري لعمودها الفقري والكتلة السمراء لرأسها مع المنقار البارز وكل العري بينهما.

بدأ يصعد ثانية، وفي القمة، سقط وتمدد لبعض الوقت والصاري على كتفه. حاول أن يقف. لكن هذا كان صعباً جداً وجلس هناك والصاري على كتفه ونظر إلى الطرق.

مرقت قطة على الجانب البعيد مشغولة بشؤونها الخاصة فراقبها الرجل العجوز. ثم راقب الطريق فقط.

أخيراً وضع الصاري على الأرض ووقف. التقط الصاري ووضعه على كتفه وبدأ يصعد الطريق. كان عليه أن يجلس على الأرض خمس مرات قبل أن يصل إلى كوخه.

في داخل الكوخ أمال الصاري على الجدار. في الظلام وجد قنينة ماء وشرب جرعة. ثم استلقى على السرير. سحب البطانية على كتفيه ثم فوق ظهره ورجليه ونام ووجهه إلى أسفل على الجرائد وذراعاه ممدودتان وراحتا يديه إلى أعلى.

كان نائماً حين أطلّ الولد من الباب في الصباح. كانت الريح تهب بقوة شديدة إلى حد أن قوارب الصيد بالشباك لم تكن لتخرج إلى البحر وكان الولد قد نام متأخراً ثم حضر إلى كوخ الرجل العجوز كما كان يحضر كل صباح. رأى الولد الرجل العجوز يتنفس ثم رأى يديَ الرجل العجوز وبدأ يبكي. خرج بهدوء بالغ ليذهب لإحضار بعض القهوة وطوال الطريق ظل يبكي.

تحلق كثير من الصيادين حول الزورق ناظرين إلى ما كان مربوطاً إلى جانبه وكان أحدهم في الماء، وقد شمر عن سرواله، وراح يقيس الهيكل العظمي بقطعة خيط.

لم يهبط الولد إلى الشاطىء. كان قد ذهب إلى هناك من قبل وكان أحد الصيادين يقوم بالعناية بالزورق بدلاً عنه.

صاح أحد الصيادين: "كيف هو؟"

صاح الولد: "نائم". لم يبالِ لرؤيتهم له يبكي. "لا تدعوا أحداً يزعجه".

صاح الصياد الذي كان يقيسها: "كانت ثمانية عشر قدماً من الأنف حتى الذيل".

قال الولد: "أنا أصدق هذا".

دخل الشرفة وطلبَ علبة قهوة.

- "ساخنة مع كثير من الحليب والسكر فيها".

- "شيء آخر؟"

- "لا. فيما بعد سأرى ما يمكن أن يأكله".

قال المالك: "يا لها من سمكة. لم توجد أبداً سمكة كهذه. وتلكما كانتا سمكتين رائعتين اللتين اصطدتهما أنتَ أمس أيضاً".

قال الولد: "اللعنة على سمكتيّ" وبدأ يبكي من جديد.

سأل المالك: "هل تريد شراباً من أي نوع؟"

قال الولد: "لا. أخبرهم ألاّ يزعجوا سنتياجو. سأعود".

- "أخبره عن مدى أسفي".

قال الولد: "شكراً".

حمل الولد علبة القهوة الساخنة إلى كوخ الرجل وجلس إلى جانبه حتى استيقظ. ذات مرة بدا كأنه يصحو. لكنه عاد إلى النوم العميق وعبرَ الولد الطريق ليستعير بعض الخشب ليسخن القهوة.

أخيراً، صحا الرجل العجوز.

قال الولد: "لا تجلس. إشرب هذه". صبّ بعض القهوة في كأس.

أخذها الرجل العجوز وشربها.

قال: "هزمتني يا مانولين. لقد هزمتني حقاً".

- "لم تهزمك. ليست السمكة".

- "لا. حقاً. كان هذا فيما بعد".

- "بدريكو يعتني بالزورق والعدة. ماذا تريد فعله بالرأس؟"

-"ليقطعه بدريكو إلى قطع لاستعمالها في أشراك الصيد".

-"والرمح؟"

-"احتفظ أنت به إذا أردته".

قال الولد: "أريده. الآن يجب أن نضع خططنا حول الأشياء الأخرى".

-"هل بحثوا عني؟"

-"طبعاً. مع خفر السواحل والطائرات".

قال الرجل العجوز: "المحيط كبير جداً والزورق صغير ومن الصعب رؤيته". لاحظ مدى السرور الذي يحس به بالحديث إلى شخص بدلاً من الحديث إلى نفسه فقط وإلى البحر. قال: "افتقدتك. ماذا اصطدت؟"

-"واحدة في أول يوم. واحدة في الثاني واثنتين في الثالث".

-"جيد جدا".

-"الآن سنصيد معاً مرة أخرى".

-"لا. أنا لست محظوظاً. لم أعد محظوظاً أبداً".

قال الولد: "إلى الجحيم بالحظ. سأجلب الحظ معي".

-"ماذا ستقول عائلتك؟"

-"أنا لا أهتم. اصطدتُ اثنتين أمس. لكننا سنصيد معاً الآن فلا يزال أمامي الكثير لأتعلمه".

-"يجب أن نحصل على رمح قتل جيد ونبقيه دائماً في الزورق. يمكنك صنع النصل من طرف نابض من سيارة فورد قديمة. يمكننا شحذها في بلدة جواناباكوا. يجب أن تكون حادة وليست مسقية فتكسر. سكيني انكسرت".

-"سأحضر سكيناً أخرى وأشحذ النابض. كم يوماً مضى على briza/النسيم؟"

-"ربما ثلاثة. ربما أكثر".

قال الولد: "سأرتب كل شيء. اعتنِ بيديك جيداً يا عجوز".

-"أعرف كيف أعتني بهما. في الليل بصقتُ شيئاً غريباً وأحسست بأن شيئاً في صدري كسر".

قال الولد: "أعتنِ بهذا أيضاً. تمدد يا عجوز، سأحضر لك قميصك النظيف. وشيئاً تأكله".

قال الرجل العجوز: "أحضر أي جرائد صدرت في الوقت الذي خرجت فيه".

-"يجب أن تتحسن بسرعة فهناك الكثير مما يمكنني تعلمه كما يمكنك أن تعلمني كل شيء. كم عانيتَ؟"

قال الرجل العجوز: "كثيراً".

قال الولد: "سأحضر الطعام والجرائد. استرح جيداً يا عجوز. سأحضر شيئاً من الصيدلية ليديك".

-"لا تنسَ أن تخبر بدريكو أن الرأس له".

-"لا. سأتذكر".

حين خرج الولد من الباب وهبط الطريق مرجاني الصخرِ المتآكل، كان يبكي مرة أخرى.

بعد ظهر ذلك اليوم، تجمعت مجموعة سياح في الشرفة وفيها كانت امرأة تنظر إلى أسفل في الماء بين علب البيرة الفارغة وأسماك باراكودا ميتة رأت عموداً فقرياً طويلاً جداً وأبيض بذيل هائل في نهايته يرتفع ويتمايل مع حركة المد والجزر بينما الريح الشرقية تهب مثيرة بحراً ثقيلاً ثابتاً

خارج مدخل المرفأ.

سألت نادلاً وأشارتْ إلى العمود الفقري الطويل للسمكة الضخمة التي كانت الآن مجرد قمامة تنتظر أن تندفع إلى عرض البحر مع حركة المد. "ما ذلك؟"

قال النادل: "Tiburon/ قرش، Eshak/سمك قرش".

كان يقصد أن يوضّح لها ما كان قد حدث.

-"لم أعرف أن لسمك القرش مثل هذه الذيول الجميلة رائعة الشكل".

قال رفيقها: "ولم أعرف أنا هذا".

في أعلى الطريق، في داخل كوخه، كان الرجل العجوز نائماً مرة أخرى. ظلّ نائماً على وجهه بينما جلس الولد إلى جانبه يراقبه. كان الرجل العجوز يحلم بالأسود.

أسئلة

الأسئلة التالية من وضع المترجم.

القصد من هذه الأسئلة، إضافة إلى اختبار مدى استيعاب القارىء للعمل الذي بين يديه، محاولة تقديم مفاتيح لتحليل وتقييم وتذوق القارىء لهذا العمل. وقد تصلح بعض الأسئلة لكتابة أطروحة قصيرة أو مقال عن الموضوع الذي تطرحه تلك الأسئلة.

١. في أي فترة تاريخية عاش المؤلف وما هو الجو الثقافي الذي ساد في تلك الفترة؟

في أي سنة ولد وفي أي سنة توفي؟ الكتّاب العالميون الكبار الذين عاصرهم؟ الكتّاب الأمريكيون الذين رافقهم في رحلة عمره، لفترات قصيرة أو طويلة؟ والذين تأثر بهم من هؤلاء الكتّاب وأولئك؟

٢. أي والديه أثر فيه أكثر من غيره؟

تأثير أبيه فيه، الأمر الذي ظهر في أعماله المبكرة والمتأخرة. ماذا تعلّم من أبيه؟ هل ظهر هذا في عمله الذي قرأته؟ أي أعمال أخرى تبين تأثير أبيه فيه؟ أذكر قدر ما تستطيع من أعماله التي تظهر تأثير أبيه فيه. ما مدى تأثير أمه فيه؟ هل يمكنك الإشارة إلى بعض أعمال همنجواي الأخرى التي تبين مثل هذا التأثير؟

٣. عاش همنجواي فترة طويلة في أوروبا، أي المدن الكبرى والبلدان التي عاش فيها فترة طويلة؟ هل خلّفت هذه البلدان

والمدن بصمات على آثاره الأدبية من قصص قصيرة أو طويلة؟ أذكر أهم هذه الأعمال.

٤. تتميز أعمال همنجواي بالخشونة والعنف، هل هذا صحيح؟
خاض همنجواي حروباً عديدة، كمقاتل أو كمساند للجنود في المعارك العديدة التي شارك فيها، حاول أن تذكر أهم هذه الحروب؟ أذكر مدى تأثير هذا على تراثه الأدبي.

٥. هل مارس همنجواي الصحافة؟ في أي مجال منها؟ هل أثرت هذه الممارسة على أدبه؟ ما مدى هذا التأثير؟ تتبع هذا في أعماله الأدبية.
يقول النقاد أن الصحفي ليس بأديب ناجح على الأغلب كما أن الصحفي ليس أديباً بحكم مهنته. هل ينطبق هذا على همنجواي؟ هل مارس همنجواي الصحافة كمحترف أو في مرحلة من حياته ليغطي تكاليف حياته المعيشية في غربته؟ ما مدى اعتزاز همنجواي بهذه المهنة؟

٦. ما معنى كلمة بارَدي الأجنبية؟
في الأدب الغربي، كما هي الحال في الأدب العربي، ما يسمى بالنقائض، لكن كأعمال قصصية وروائية إضافة إلى الشعر، وقد كتب همنجواي مثل هذه النقائض، التي تدعى في الآداب الأوروبية parody، وهي كتابة ساخرة توجه ضد كاتب معين بتقليد أسلوبه على نحو ساخر، أذكر أهم أعمال همنجواي القصصية التي تعتمد مثل هذه الكتابة.

٧. ماهي الميزة الرئيسية لأسلوب همنجواي؟
اللغة التي يستعملها الكاتب في الأعمال القصصية تظهر للقارىء في عرض الكاتب للأحداث وتقديم الشخوص القصصية: السرد.

وتظهر البساطة هنا باستعمال جمل قصيرة وبسيطة (عكس المعقدة والمركبة complex and complicated sentences). فاعل/ فعل/ مفعول به: هي أبسط الجمل؛ تضاف إليها ظروف مكان أو ظروف زمان وصفات للأسماء وأحوال للأفعال وتكملة وشبه جمل؛ وتظل الجملة بسيطة. ماهي الجملة المعقدة أو المركبة؟ هل يستعمل الكاتب الصفات كثيراً في جمله؟ هل يكتفي بذكر الحدث فقط كما هو دون تزيين لغوي أو حشو لا طائل من ورائه؟ تتبع هذا في الرواية القصيرة التي قرأتها. هل يمكنك متابعة هذا في أعمال أخرى؟
لا تقتصر البساطة اللغوية في لغة السرد على بساطة الجمل فقط؛ فهناك الكلمات التي يستعملها المؤلف في بناء هذه الجمل: هل يستعمل الكاتب مفردات لغوية قاموسية أم مفردات يستعملها الإنسان العادي في حياته اليومية، كلٌ حسب ظروفه وبيئته ومهنته؟ هل يستعمل همنجواي، إذا أراد أن يذكر أن شخصاً من شخصياته القصصية يدخل غرفة، مثلاً، كلمة دخَلَ، أو دَلَفَ، أو وَلَجَ. ولماذا؟ أي الكلمات أقرب إلى ذهن الإنسان العادي؟ ما مدى تأثير كل كلمة على القارىء إذا استعملها المؤلف في مكانها؟
في الفن القصصي عنصر لغوي آخر له أهمية كبيرة في تكوين عنصر القص؛ هو عنصر الحوار: وهو ما يدور بين شخصيتين أو أكثر من شخوص العمل القصصي، وحوار الشخصية نفسها ترددة لتخاطب نفسها به، وهذا النوع من الحوار يعرف بالحوار الفردي/ المونولوج monologue أو monolog (وقد يكون منطوقاً أو غير منطوق)، كما أن هناك الـ stream of conscinsness التداعي أو تيار الشعور/ تيار الوعي، يدور في ذهن الشخصية القصصية دون ربط منطقي لانسيال هذا النوع من الحوار الفردي (ونحن ندعو هذا حواراً على نحو نتجاوز به مصطلح الحوار)، كل هذا يضفي عمقاً جديداً في عرض الأحداث والشخصيات، ويقربها من فهم

ومعايشة القارىء لها. ما هي المفردات التي يستعملها مزارعون بسطاء إذا اجتمعوا ليتبادلوا أطراف الحديث؟ أو ليخاطب كل منهم نفسه على انفراد؟ ماهي مفردات التداعيات التي تنثال في أذهانهم؟ هل سيستعملون كلمات أدبية طنّانة؟ هل سيستعملون لغة شعرية تثير الشجن والحزن و. .الخ؟ هل يحس القارىء بصدق ما يقرأه إذا سمع مزارعاً بسيطاً يردد: الشمس في كبد السماء تلقي بأشعتها الزمردية على الكون الرحيب، وتبث الحياة في النفوس فتثير البهجة فيها وتخلق عوالم هنيّة و. . .الخ؟ تتبع أجزاء من الحوار الذي يجري بين الصياد العجوز: سنتياجو والولد مانولين؛ والحوار المنفرد بين الصياد العجوز وبين نفسه (منطوقاً كان أو غير منطوق). ما مدى انطباق التركيبات اللغوية والمفردات الموصوفة أعلاه على تلك الحوارات؟

ظهر تيار الوعي في أحد الأقسام الأربعة التي تشكل رواية **أن تملك وألاّ تملك**، في أيها ظهر على نحو واضح؟ ما مدى نجاح همنجواي في استعمال تيار الوعي في هذه الرواية؟ هل يواجه القارىء مثل هذا التيار في روايات أخرى (**لمن يقرع الجرس**، **وداعاً للسلاح**، وبعض قصصه القصيرة)؟

٨. هل تعتبر رواية العجوز والبحر عنيفة وخشنة في مضمونها؟ أشر إلى هذا في النص الذي قرأته. العنف والخشونة تغلبان على مضامين همنجواي، تتبع هذا في قصصه ورواياته الأخرى.

مصارعة الثيران، صيد الأسماك كبيرها وصغيرها، القتال في الحروب والعراك بين الأفراد، المغامرات العنيفة، هي الطابع الغالب على حياة همنجواي، تتبع هذا في روايته هذه وقصصه ورواياته الأخرى. هل تحس بصدق المؤلف حين يعرض كل هذه المواضيع في أعماله الأدبية؟ لماذا؟

٩. كيف مات همنجواي؟ هل مات أبوه نفس الميتة مع فارق في

الوسيلة؟ لماذا مات تلك الميتة؟ هل تلقى شخصية من شخصياته الروائية المشهورة نفس مصير مؤلفها؟ لماذ؟ الكاتب يكتب أعماله وهو في ذروة شبابه المهني، وتخرج شخصياته ومضامينه على النحو الذي يعيشه أثناء كتاباته. هل يعني هذا أن اليأس لم يعشه سوى في أواخر سنيه؟ هل كان يحب الحياة وهو شاب ويعيشها طولاً وعرضاً حينذاك، فكانت شخصياته صورة عنه؟ أشر إلى هذا في أعماله.

١٠. كيف بدأ المؤلف روايته الرجل العجوز والبحر؟ هل طابع السرد تقريري أو درامي؟ ما الفرق بين العرض التقريري والعرض الدرامي؟ أيها أقرب إلى الصحافة؟ أيها أشد تأثيراً على القارىء؟ حاول أن تشير إلى هذا في العمل الذي أمامك وفي أعمال أخرى.

١١. ما هي الصفات التي استعملها المؤلف في تقديم الصيّاد العجوز؟ هل أسهب كثيراً في وصفه له؟ هل اكتملت صورة الشخصية في ذهننا ونحن نقرأ تلك الصفات؟ إطرح هذا السؤال على نفسك فيما يتعلق بتقديم شخصية الولد؛ وصيادي القرية، وكل من نصادفه من سكان القرية أثناء تتابع الأحداث.

١٢. القرية أو البلدة الساحلية التي تصورها الرواية تقع في كوبا، ماهي لغة أهل القرية، بما فيهم الصيّاد العجوز؟ كتبت الرواية باللغة الإنجليزية وهي تصور شخوصاً يتكلمون اللغة الإسبانية، كيف يوحي المؤلف للقارىء بأن المتكلمين في الحوارات المختلفة يتكلمون اللغة الإسبانية وليست الإنجليزية؟ هل تقنع هذه الطريقة القارىء بأن الشخصيات هذه لا تتكلم الإنجليزية؟

١٣. نحسّ، من خلال قراءتنا للرواية، بأن شعب تلك القرية فقراء يكدّون للحصول على رزقهم اليوميّ. هل استعمل المؤلف

كلمتي الفقر أو الفقراء لتوحيان لنا بحالهم هذه؟ تابع طريقة العرض التي تفهمنا هذه الحقيقة دون ذكرها على نحو مباشر.

١٤. البحر، البحر الواسع الشاسع الرحيب الممتد إلى مالانهاية، ألهم آلاف الكتاب من الإغريق والعرب والأوروبيين القدماء والمحدثين، أذكر ما يخطر على بالك من الأعمال الأدبية التي أحببتها وتدور حول هذا الموضوع. كيف تحس بالبحر من خلال تجربة الصياد العجوز؟ الخوف؟ الطمأنينة؟ الحب؟ الكراهية؟ ... إلخ.

١٥. أذكر أسماء الأدوات التي يستعملها الصياد في عمله على ظهر زورقه.

١٦. ماهي الهواية الرئيسية التي تشغل بال الصياد العجوز؟ هل يشاركه الولد في هذه الهواية؟

١٧. يستعمل المؤلف تقنية الـ flash back، وهي الرجوع إلى الماضي بطريقة درامية، أشر إلى هذا في النص الذي قرأته.

١٨. قد يدمَّر الإنسان لكنه لا يهزم: هذه فكرة تدور في ذهن الصياد العجوز، كيف تبرهن على صحة هذه المقولة من خلال النص؟ لماذا لم يهزم الصياد أمام سمك القرش المفترس؟

١٩. السمكة قوية وهائلة الحجم، والصياد إنسان محدود القوة وضئيل الحجم نسبياً، ما الذي يجعل من الصياد العجوز هذا نداً للسمكة الضخمة؟ استشهد بأحداث الرواية للدلالة على هذا.

٢٠. كم يوماً وليلة أمضى الرجل العجوز في البحر وهو يتابع صيده هناك؟ هل كانت أيامه ولياليه مريحة؟ ما هو إحساسك

كقارئ، وأنت تتابع مطاردة الصياد العجوز للسمكة؟ هل ترى أن الجهد الذي بذله الصياد يستحق النتيجة التي وصل إليها؟

٢١. على ماذا كان يقتات الصياد العجوز أثناء رحلة صيده هذه؟ لماذا كان يحض نفسه على الأكل؟

٢٢. يعامل الصياد العجوز السمكة الضخمة وبقية الأسماك وحتى الكائنات الأخرى من حوله، والظواهر الطبيعية كأنها بشر من لحم ودم، كيف يصور الكاتب هذه المواقف؟ هل يقنعك تصرفه هذا، أم أنك تحس بأنه إنسان يختلف عن البشر اختلافاً تاماً، إنسان شاذ أو مخبول يكلم نفسه ويكلم الحيوان والجماد كي يخاطب إنساناً عادياً؟

٢٣. هل ترى بأن ذكر المرأة السائحة مقحم على أحداث الرواية أم أن للمؤلف هدفاً من هذا؟ إن كان الجواب ايجابياً، ما هو ذلك الهدف؟ ما هي جنسية هذه المرأة على ما تظن؟ لماذا؟

٢٤. هل ترى أن إشارة كارلوس بايكر (كما جاء في المقدمة) إلى رمزية النص، حسبما فسره هو، صحيح ومقنع أم أنك تحس بأنه يلوي عنق النص ليطابق فكرته تلك عن الرمزية؟
على ذكر الرمزية: هل كلمة allegory/ أليجوري، تدل على نفس معنى الرمزية symbolism؟ حاول أن تذكر أعمالاً أدبية تبين الفرق بين الكلمتين.
٢٥. إن كنت قرأت رواية موبي ديك للكاتب الأمريكي هيرمن ملفيل، قارن بين شخصية الحوات: آهاب في رواية ملفيل والصياد: سنتياجو في رواية همنجواي.

٢٦. في أعلى الطريق، في داخل كوخه، كان الرجل العجوز

نائماً مرة أخرى. ظلّ نائماً على وجهه بينما جلس الولد إلى جانبه يراقبه. كان الرجل العجوز يحلم بالأسود.

هذه هي الفقرة الأخيرة من الرواية، هل ترى أن هذه النهاية قوية؟ أو أن النهاية تسقط من ذروة توترنا ونحن نتابع الأحداث إلى حضيض استرخائنا بعد انتهاء المغامرة؟

المراجع في سطور:

دكتور: سميح ذيب عقاب (إبطح):

- من مواليد عمّان: ١٩٥٢
- درس في ثانويات عمان
- سافر إلى كندا حيث درس الأدب الانجليزي في ١٩٧٥ في جامعة NUU
- عمل في كثير من الأعمال الحرفية والمكتبية ليسدّد نفقاته هناك أثناء دراسته
- أنهى دراسته الجامعية في ١٩٧٩ بدرجة ممتاز
- لعشقه المسرح أعدّ رسالته بعنوان: **جذور مسرح اللامعقول في التراجيديا والكوميديا الإغريقية** لذلك كثّف دراسته للغة اليونانية واللاتينية للرجوع إلى الأدب اليوناني والروماني بلغتيه الأصليتين
- بعد أن حصل على الماجستير بامتياز مع مرتبة الشرف في ١٩٨٢ بدأ يستعد لنيل درجة الدكتوراه، وظلّ يعمل معيداً في نفس الجامعة لتغطية نفقاته المعيشية والدراسية
- حصل على الدكتوراه بأمتياز مع مرتبة الشرف وكانت رسالته بعنوان: **صاموييل بيكيت: مقارنة بين أعماله الدرامية والروائية في ١٩٨٧**
- يدرس الآن في الجامعة التي تخرّج منها، كما يقوم بإمداد دور النشر العربية بترجمات لأعمال من الأدب العالمي. ويساهم بمقالاته الأدبية والفكرية في المجلات العربية على مدى الوطن العربي كله.